باص رقم (٩)

مشاهدات طالب سعودي في بريطانيا

ⓒ ياسين حمد الصالحي، ١٤٣١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالحي ، ياسين حمد
باص رقم ٩. / ياسين حمد الصالحي - الرياض ، ١٤٣١هـ
... ص ؛ .. سم
ردمك: ٤-٤٣٠٦-٠٠٠-٦٠٣-٩٧٨

١ - بريطانيا - وصف ورحلات أ. العنوان
ديوي ٣٠٤ ، ٩١٤ ١٤٣١/١١٣٤

رقم الإيداع: ١٤٣١/١١٣٤
ردمك:٤-٤٣٠٦-٠٠٠-٦٠٣-٩٧٨

دار الفكر العربي للنشر والتوزيع
الإدارة العامة - الدمام
تليفون: ٠٣٨٣٣٨٤٤٩
مسؤول النشر: تليفون| ٠٥٣٣٩٣٩٣٣٥

Alfeker - Alaraby Publishing house
General Admination - Dammam
Tel: 038338449
Publisher: 0533939335

dar.al.feker@gmail.com
www.daralfkr.com | dar.al.feker@hotmail.com | www.daralfkr.net

الإشراف والإخراج الفني
إبداع للنشر و صناعة الكتاب
www.ebdia.com

تصميم الغلاف :
www.muhabart.com

الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة جميع المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن مسبق من الناشر

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in aretrieval system or transmitted any means with out prior permission in writing of the publisher

جميع العبارات والأفكار الواردة في الكتاب تعبّر عن
وجهة نظر المؤلف دون أدنى مسؤولية على الناشر

باص رقم (٩)

مشاهدات طالب سعودي في بريطانيا

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ياسين بن حمد الصالحي

busno.9@hotmail.com

مقدمة

وبالرغم من أنها مقدمة ، إلا أنها – كما تبدو- ختام مشاهداتي خلال مرحلة دراستي في بريطانيا، وليس سرّاً إن قلت إن هذا الكتاب ما كان ليولد لولا إرهاصات الإلكترون ، وقد تكون رجعية مني أتراجع فيها عن صفحات إلكترونية إلى صفحات ورقية تفتح شهية الرقيب، يا لها من مفارقة !.

منذ أول يوم وصلت فيه إلى بريطانيا كنت أمر بتجارب ومشاهدات أحكيها عبر الهاتف لأفراد عائلتي ولأصدقائي ، وحينها ولدت فكرة إنشاء مدونة إلكترونية أكتب فيها "بحرية" بعيداً عن المجموعات الطلابية التي يغلب عليها التشنج ، غير أنني تكاسلت فيما بعد عن تدوين تجاربي ، حتى جاء اليوم الذي التحقت فيه بمعهدنا للغة الإنجليزية فتاة برازيلية متخصصة في القانون الدولي وكانت تطمح في أول زيارة لها لبريطانيا إلى تطوير لغتها الإنجليزية لرغبتها الشديدة في الحصول على وظيفة محاماة ، كانت تلك الفتاة تكتب حلقة يومية في مدونتها الإلكترونية عن مشاهداتها وتجاربها وعلاقاتها ومواقفها في داخل المعهد وخارجه ، وخصوصاً مواقفها مع الطلاب السعوديين وكانت تبدي إعجاباً كبيراً

أحياناً ودهشة أحياناً أخرى مما تسمعه عن ثقافتنا العربية والسعودية تحديداً ، كانت تسألنا ونحن نجيب على أسئلتها بصراخ أحياناً أو بسخرية من أسئلتها أحياناً أخرى ، لكنها كانت لا تنام حتى تكتب بأسلوب مشوق عن كل ما تسمعه منا في مدونتها التي سببت لها بعد ذلك صداعاً من نوع آخر فاضطرت إلى إقفالها .

قفزت إلى ذهني من جديد فكرة التدوين فأنشأت المدونة وأسميتها "مدونة ياسين" ، ذلك لأنني سأكتب عن تجاربي وآرائي وانطباعاتي الخاصة ، وكتبت في أعلى المدونة :

" في هذه المدونة أكتب أفكاري التي أعتقد أنها قيمة ، تركت لكم مساحة للرد والتعليق بما تعتقدون أنه فكر قيم ، لذا أعزائي القراء ستجدون هنا أفكاراً توافقكم وأخرى قد تدعوكم للغضب ، فلا تفرحوا أشد الفرح ولا تجزعوا أشد الجزع .. لكن فقط دعوا أفكارنا تتلاقح لتنتج فكرة توصلنا للسماء !. "

وكان لزاماً علي أن أكتب تلك العبارة كاتفاقية لقراءة المدونة لإيماني التام أن ذات الشخص الذي سيصفق فرحاً بفكرة ما سيأتي في اليوم التالي ليسطر غضبه من خلف الشاشة وعلى صفحة المدونة الإلكترونية .

غير أنني بعد مرور عام كامل على إنشاء المدونة، بدأت أفكر جديّاً في كتابة أفكاري في كتاب مطبوع ، وشجعني على ذلك قلة الكتب المعروضة التي تتحدث عن هذا الجانب ، وكان علي أن أدفع ثمن هذه

الرجعية الفكرية ، قمت من حيث لا أدري بتنصيب نفسي رقيباً على ما أكتب في هذا الكتاب ، بعكس ما كنت أكتبه بحرية كاملة في مدونتي .

حاولت في هذا الكتاب قدر المستطاع أن أكتب رأيي وفكرتي حول كل تجربة أو مشاهدة ، لئلا يتحول الكتاب إلى تفاصيل مملة لمواقف عادية، وأذهب أحياناً بين السطور إلى ذكر بعض المقارنات لتتجلى الصورة بشكل أوضح .

وما بين الصفحة الأولى والأخيرة من هذا الكتاب تجارب سنتين وأفكار عقدين من الزمن جمعتها في أقل من ١٠٠ صفحة قد يستعصي بعضها على حبة البنادول بسبب تأثير الثقافة السائدة ، فيما قد يفتح بعضها آفاقاً من التفكير والمراجعة والنقد ، وهذا ما ابتغيته منذ أول حرف إلكتروني كتبته قبل أن يتحول بقدرة حبر إلى حرف مكتوب.

ياسين حمد الصالحي
١١ نوفمبر ٢٠٠٩م
لندن، إنجلترا

لأول مرة .. إلى لندن!

ما أكثر أحلامي ، وما أقلها تحقيقاً ، لكنني اليوم واثق من أن حلمي بلقاء لندن سيتحقق ، ففي يوم رمضاني أقضي لحظاته الأخيرة في مدينة جدة متجهاً نحو مطارها يقترب لقاء لندن أكثر فأكثر ، لا تظنوا أنني التقيتها سابقاً حتى أشتاق للقائها الآن ، لا.. لكنني كنت أقرأ عنها الكثير والكثير ، وكنت أقرأ وجهها ومعالمها التي دائماً ما يرسمها سفيرنا القصيبي الذي كانت له قصة أخرى معها ، لم يبق على لقاء لندن إلا قبلة في جبين أبي أقطع بها علاقتي بوطني لشهور عدة ، لم يفارقني الجو الرمضاني الذي يتلبس الأرض والجواء معاً ، لم يفارقني إلا حينما أطلت طائرتنا الوطنية برأسها على أجواء لندن، يا للروعة! أهذه لندن؟! تطاولت قليلاً لأرى نهر التايمز يحتضن القوارب بقرب ساعة "البيق بين" الشهيرة التي كان يسمع رنتها الشهيرة جدي الأسبق ، لا أظن أن أحداً لم يسمع رنة صوت جرسها الذي دائماً ما يرتبط بخبر قادم قد يكون مذهلاً حد الخوف من الحرب أو مخبراً بقرار أممي دولي !.

هبطنا مطار"هيثرو" الدولي والذي رغم بساطته يحوي جميع الخدمات الضرورية فيه ، ورغم زحامه الشديد لم أمكث فيه أكثر من

نصف ساعة شملت إنهاء جميع إجراءاتي المتعلقة بدخولي إلى بريطانيا، خرجت من المطار في سباق مع غروب الشمس التي لم تسعفني بضوئها في رؤية معالم لندن ، وصلت للفندق المحدد بسهولة كبيرة عبر باص واحد ، كنت مرهقاً جدّاً ، لذا كان النوم هو الخيار الأول في ليلة لندنية لم أستمتع فيها بنشوة اللقاء الأول .

نسيت أنني جئت لبعثة دراسية لدراسة مرحلة الماجستير في تخصص الحاسب الآلي ، وبالكاد تذكرت ترتيب أوراقي التي اختزنتها حقيبتي الكبيرة مع رائحة أمي من قريتي المنسية ، صحوت في الصباح الباكر الذي كان أول صباح أستيقظه في لندن ، تعجبت من قدم المباني وجمال التصميم وقوة التنظيم خاصة عندما أخبرتنا موظفة الفندق أن الباص قد يأتي بعد أقل من ثلاث دقائق ، ثلاث دقائق ؟! لم أتعود على هذا الرقم فأنا أحسب دائماً بمضاعفات الدقائق الخمس إن لم يكن العشر وأحياناً تمام الساعة .

وصلت للملحقية الثقافية السعودية في لندن التي حولت كل جهودها للنواحي الأكاديمية والدراسية فيما بقي مسمى "الثقافية" كلمة يتيمة في عاصمة الثقافة ، دخلت فيما بعد أكثر من متحف ومعرض لم أجد لهذه الملحقية من إنجاز ثقافي يستحق حملها لهذه الكلمة اليتيمة ، لكنني بعد أن أنهيت كامل إجراءاتي بسرعة نسيت الثقافة وشجونها وتجاهلت التنظير من أجل إنصافها .

بعد خروجي من المعاملات الرسمية التي أكرهها دائماً قفز إلى

ذهني أول مكان أزوره في لندن ، "الهايد بارك" تلك الحديقة الجميلة الهادئة الحالمة التي احتضنت حرية الكلمة في أحد أركانها حين خصصت ركناً خاصّاً للمتحدثين بحرية كاملة ، أخذت جولة فيها، شاهدت فيها أناساً يتجولون فيها بكامل حريتهم دون انتهاك لخصوصيتهم بنشرة دعوية أو متسول يطلب مالاً، كان البعض يضحك بارتياح دون أن يكون هنالك تحذير فيما آخرون يقرؤون على ضفاف البحيرة التي كانت تتميز بنظافة كبيرة ، لم أكن أصدق وأنا الذي كنت أتجول بخوف على شواطئ الساحلين الشرقي والغربي اللذين لم يسلما من تشويه متعمد من سائح عربي أو مواطن محلي .

كانت الهايد بارك تضج بالسياح وكانت محاطة بالباصات الحمراء الشهيرة وسيارات الأجرة السوداء تحيط بها من كل مكان ، حينها اكتملت الصورة النموذجية للندن ، شاهدت غروب الشمس في هذه الحديقة التي لم أسأم منها إطلاقاً ، وأكملت فترة ما بعد الغروب في شارع "إدجوار روود" أو شارع العرب كما يحب أن يطلق عليه بنو يعرب ، عدت بعدها لحيث كنت قبل يوم ، كانت الفوضى تعم الشارع حتى كنت إخال البلدية تعطي هذا الشارع ضعف ما تعطيه لغيره ، لكنها لندن حين تمنح لكل ثقافة مساحتها ، لكن هذا الشارع لم يخل من حسناته التي تجلت في خلق صورة رمضانية افتقدتها من أول يوم فارقت فيه رمضان ، كانت معالم رمضان حاضرة على جنبات هذا الشارع لو لم يعكرها بعض المارة العرب بسلوكياتهم التي تفسد الأجواء بما حوت .

قصتي مع صديقي توم !

ولأنه يرفض دائماً أن أعتبره مدرساً لي ، كان دائماً ما يترجاني أن أعتبره صديقاً لا غير ، "توم" هو أحد الذين تعلمت على أيديهم في معهد اللغة الإنجليزية في مدينة "نوريج" ، ورغم أنه كان يعترف بإلحاده إلا أنه كان يعاملني بطيبة لا حدود لها رغم احتدام النقاش بيننا حتى في داخل الفصل الدراسي، تعلمت من "توم" الشيء الكثير خارج محيط مادته الدراسية ، وقد يكون الإنجليزي الوحيد الذي وضعني في ساحة الحوار باتجاهاتها المختلفة والمجهولة ، كانت محاضرته شيقة لأبعد الحدود ، كان يفرض علينا تقبل رأي معين خلال مناقشاتنا في الفصل الدراسي ثم بعد ذلك يطلب منا معارضته وإعادة النقاش ليتعود الواحد منا على قراءة فكر الشخص الآخر ، كان هذا ديدنه في أكثر محاضراته حتى بت لا أتسرع بالحكم على أي موقف أو شخصية برأيها لأنني أصبحت أضع نفسي في ذات الموقف وأختبر ردة فعلي .

في محاضرة دراسية ، كان موضوع الدرس عن الاعتقادات الدينية، وتعمقنا بشكل أكبر في الحوارات التي تدور حول وجود الخالق عز وجل، قرر مدرسي توم أن يقسم المجموعة إلى قسمين ، قسم يفترض أن يعتقد

بوجود الخالق والآخر عكس ذلك تماماً ، وجاء ترتيبي ضمن من يعتقدون بعدم وجود الخالق ، وعلى الفور عارضت ذلك وطلبت تبديل موضعي لتلك المجموعة التي تعتقد بوجود الخالق ، أخبرني أن ذلك مجرد حوار لفهم طريقة تفكير الآخر ، إلا أنني رفضت تماماً ، عندها تبرع أحدهم بمكانه لي ، أكملنا حوارنا عن وجود الخالق وكان يستمع لنا باهتمام، وبعد نهاية الحوار طلب من كل واحد منا أن يفصح عن رأيه الفعلي بخصوص ذلك، في نهاية المحاضرة اعتذر مني توم إن كان قد أخطأ في جرح معتقدي فبادرت بسؤاله عن رأيه في مسألة وجود الخالق فأخبرني أنه لا يعتقد ذلك رغم أنه يعتقد أن البعث قد يتم بطريقة أو بأخرى .

لأول مرة في حياتي أشهد حواراً يشارك فيه رأي آخر ولأول مرة أرى مدرساً يناقش طلابه في آرائهم ، تعودت دائماً أن لا أناقش أو أحتج حتى على موعد اختبار أو درجة في اختبار معين ، تعودت ألا أناقش شيخ قبيلتنا في رفضه ختم ورقة أو تأجيلها لأجل غير مسمى ، تعودت دائماً ألا أسأل معلمي في مرحلتي الجامعية عن حكمه على فكرتي الخاصة بي في بحث أكاديمي ، غير أن "توم" نسف ذلك كله في محاضرة واحدة لا تتعدى الساعتين .

أخبرني توم أنه يشعر بسعادة كبيرة كونه يمارس مهنة التعليم أو التدريس في ذات الوقت الذي يذهب إلى الجامعة طالباً في تخصص طرق التعليم ، أخبرني أنه يعتمد على ذاته في إنجاز كل شيء يختص بنفسه ، وهذا ما لاحظته أنا شخصياً منذ أن جئت لبريطانيا .

وقد قرأت في لقاء صحفي أن الدكتور غازي القصيبي يعتمد على

ذاته في إنجاز أعماله الخاصة، وفي مقال للدكتور سلمان العودة أوضح أنه في رحلة استرخاء مارس أعمالاً بنفسه مثل إعداد الشاي والحليب وتنظيف الطاولة أشعرته بسعادة داخلية ، هذا ما لاحظته جليّاً هنا ، رأيت كيف يعتمد الرجل المسن على نفسه في شراء أشيائه الخاصة من مراكز التسوق، وكيف تقوم ربة البيت بإعداد كل شيء في المنزل بدءاً من إعداد كوب من الشاي وحتى دهن المنزل وتغيير فراشه ، كنت أستغرب ذلك لأنني كنت متعوداً على أن أكون مخدوماً حتى في شربي لكأس من الماء ، رغم أن والدي على كبر سنه ما زال يعتمد على نفسه في أغلب أعماله الخاصة .

ما يميز غالبية الشعب البريطاني هو النشاط والاعتماد على النفس والإتقان في أداء العمل ، في البقالة الصغيرة التي تتوسط جامعتي تشغل الفترة الصباحية فيها امـرأة مسنة تعمل بكامل نشاطها وحيوتها وأمانتها في خدمة العملاء الذين يزدحمون على هذه البقالة ورغم ذلك لا تكاد الابتسامة تختفي من محياها رغم الإجهاد ، كم كنت أغبطها على نشاطها رغم كبر سنها ، لم تعتمد هذه العجوز على أحد في ممارسة حياتها بل اعتمدت على ذاتها في تسيير أمور حياتها ، كنت ألحظ إحدى المسنات والتي كانت تعمل في أحد المقاهي وكيف كانت تتلهف وتبادر لخدمة أي عميل ينتظر خدمة ما، أدركت جزءاً مهمّاً من مفهوم السعادة التي يبحث عنها الكثير والتي تتمثل في الرضا عن الذات بغض النظر عن أية عوامل أخرى .

مع العائلة الإنجليزية ..

سأصيبكم بالملل قرائي وقارئاتي الكرام من الترديد عليكم بأنني أمر بتجارب مثيرة في حياتي التي لم أسافر فيها قط إلا ناحية الشرق، إلى ماليزيا وإندونيسيا والتي لم أتعلم منها الكثير سوى قليل من الفوضى باستثناء ماليزيا التي تنبئ بقدوم مذهل ، تجربتي هنا مختلفة جدّاً ، حيث جاء الموعد للسكن مع عائلة مختلفة تماماً عن عائلتي ، قبل يومين كنت أشرب قهوة أمي وآكل من خبزها كما يقول محمد درويش واليوم أنا على موعد لأسكن مع عائلة غريبة ، سآكل أكلاً مختلفاً ألوانه وطعمه وربما رائحته ، تلك كانت أفكاري قبل أن يقطعها سائق التكسي حين أخبرني بوصولي لمنزل العائلة ، استقبلتني عجوز علي باب منزلها بابتسامة مجاملة تقليدية استشففت منها ضرورة تقديمها لكل زائر لها ، أنزلت حقيبتي فيما ودعني السائق وأنا غير مصدق نفسي بأنني سأبيت هذه الليلة وما بعدها من ليالٍ مع هذه العائلة ، كانت العجوز متمرسة مع مثل حالاتي ، استقبلتني في صالة الاستقبال وفاجأتني بمعرفتها عن ثقافة الشرق الأوسط كونها استقبلت قبلي الكثير من الطلاب القادمين من الشرق الأوسط .

اكتسبت الكثير من التجارب خلال حياتي مع العائلة الإنجليزية،

ليس أولها الاعتماد على الذات ولا آخرها الالتزام بالموعد ، كانت العجوز الإنجليزية في أوج طيبتها معي ، لكنها كانت لا تغفر أي خطأ مني ، وكانت أخطائي بالنسبة لها التأخر عن موعد العشاء أو إزعاجها بمكالمات "تالي الليل" ، ولم يكن العقاب سوى عشاء بارد أو تذمر من مكالماتي التلفونية .

كثيراً ما تسألني "كارول" ، وهو اسم العجوز الإنجليزية ، كثيراً ما تسألني عن ثقافتنا ، عن مراسم الزواج وعن الأعياد ، عن حياتنا الاجتماعية ، كانت كثير من إجاباتي تثير دهشتها ، لم أشعر بالحرج من الإجابة على تساؤلاتها إلا حين عرضت قناة البي بي سي تسجيلاً لأحد الخاطفين لجندي بريطاني كان يعمل في العراق وبدا حينها بزي شرق أوسطي ، سألتني عن سلوك هؤلاء، أخبرتها بأنها حالة شاذة تقابلها الحالة الشاذة لهذا الجندي البريطاني الذي قدم لغزوهم .

تمحو هذه العجوز يوماً بعد يوم وصايا التحذير والتهويل من مخالطتهم ، بل أصبحت أخاف عليها من مخالطة من سيؤثر عليها سلباً بسلوكيات الفوضى ، لا أنسى إذ أنسى حين أيقظتني في يوم إجازة خاصة وافقت يوم جمعة ، أيقظتني لموعدي الذي أخبرتها أنني أقضيه كل يوم جمعة في مسجد بوسط المدينة .

كان البيت الذي أسكن فيه أشبه بناد ثقافي كبير ، ففي كل أسبوع أو أسبوعين يأتي طالب من دولة أوروبية أو آسوية ليقضي ما بين بضعة أسابيع إلى شهور ، كنت أسعد بتكوين علاقات معهم ، ومن هذه العلاقات

علاقتي بصديقي "فابيان" الألماني الجنسية الذي جاء إلي بأغنية بلهجة مغربية كان يقول إنها أعجبته ، استمعت إليها وشعرت بالحرج الكبير كوني لم أفهم كلماتها ، حينها صدمني بالسؤال : أليست لغة عربية ؟!، تذكرت على الفور جدال أحد أصدقائي لمدرسته الإنجليزية عن سبب تنوعهم اللغوي !.

أهداني "فابيان" مقطوعات موسيقية لموسيقارين عالميين وطلب مني بالمقابل مقطوعات موسيقية عربية ، أحسست أنه يريد إحراجي، إلا أنني لاحظت جديته في ذلك ، لم أجد في حقيبتي ما أهديه له ، أخبرته بأن تراثنا الموسيقي مكتوب فقط في "كتاب الموسيقا الكبير".

بعد سنة كاملة .. هل تغيرت فعلاً ؟!

التغيير .. كلمة ومفهوم رافقت أكثر مارافقت خلال العامين السابقين الدكتور سلمان العودة ، فما أن يدلي برأيه "المختلف" في مسألة ما حتى يعلق المعلقون بتغيره، ورغم أنه قال في إحدى الحلقات في برنامجه الشهير "حجر الزاوية" إنه تغير بالفعل وإن تغيره كان إيجابياً، إلا أن هنالك أشخاصاً ماهرين في صياغة التشدد بأسئلته وأجوبته التي تحيل الحقيقة إلى معادلة رياضية لا تقبل إلا رقماً واحداً هو التشدد أو "التحوط" ، في هذا الشهر – أكتوبر ٢٠٠٨- أكملت سنة كاملة قضيتها في مرحلة تعلم اللغة الإنجليزية وحينما رجعت إلى بلدتي ساءلت نفسي: هل تغيرت بعد سنة كاملة قضيتها بين "الكفار" ؟.

خلال عام عرفت معنى المساواة ، تأملت كيف يحظى الجميع بذات المعاملة فيما ذاكرتي تذكرني بابن مدرسنا في المرحلة الابتدائية الذي كان يخترق – بإيعاز من أبيه- الطابور أمام المقصف المدرسي في قريتي ليتناول نصيبه من ساندوتش وعصير ، تذكرت ابن ذلك الدكتور المحاضر في جامعتنا الذي كان يحظى بمعاملة فريدة من أساتذة تعلموا في جامعات الغرب ، كنت أعتقد أن كل ذلك كان أمراً مشروعاً كما كان

يخيل لنا ، تذكرت ذلك الرجل المسكين الذي فرقوا بينه وبين زوجته لأسباب عنصرية تكرس التمييز ، تذكرتهم وتذكرت من يبحث لهم في التراث عن ما يثبت لهم شرعية ذلك ، لكن ذاكرتي حفظت صورة إيجابية لمدرسنا الإنجليزي الذي كان يقف في ذات الطابور الذي وقفت فيه من أجل كوب من القهوة الأمريكية المرة ولم يتجاوز أحداً من طلابه، رأيت هنا الطوابير لا تُخترق من أي أحد كان ولا يقطع أحد كلامي مع مديرة معهدنا حتى لو كان المالك القانوني لذات المعهد ، كان ذلك أول تغيير في مفهومي للمساواة .

لا أنسى إن نسيت حينما كان مدرسنا يهددنا من مناداة أحد من زملائه المدرسين بغير لقبه "أستاذ" وتقبلت ذلك رغم التزامي سابقاً بهذا الأمر بغير الحاجة للوعد والوعيد ، لكن معلمي الإنجليزي والذي طوع لساني للغة العلم رفض أن نناديه بأي لقب ولم يقل ذلك بغية التواضع المصطنع ، بل كان جادّاً في ذلك بأنه لا يهتم أصلاً بأي لقب فالجميع يعرفه باسمه الذي سمي به ، تغير حينها مفهومي للتواضع الصادق وقيمته الحقيقية والثقة بالنفس .

أوصاني مدرسي للفقه والتفسير أن حياة الغرب حياة حيوانية لا يضبطها ضابط ، فهم ينامون وقتما شاؤوا ويستلذون أينما وحينما شاؤوا، أوشكت على الاقتناع بما قال لولا أنه قال : "ولنا الفضل في حضارتهم" ، لكنني تفاجأت بالعكس تماماً وتحديداً حينما سكنت مع عجوز إنجليزية لم تنس ذات يوم أن توقظني في ضحوة يوم جمعة لتذكرني بالصلاة

رغم أنه وافق يوم إجازة عامة لها ، كنت ألحظها في نظامها في الخروج والدخول في المنام والاستيقاظ ، كنت أطلب منها أن تؤجل وجبة العشاء حتى بعد الغروب في فترة الصيف إلا أنها كانت تعتذر بأن ذلك كان موعداً لم يتغير منذ سنوات ولا يتغير بحلول الصيف أو الشتاء ، رأيت كيف أن معلمنا الذي كان يتسلم مهام النشاط الاجتماعي لا يتأخر دقيقة عن موعد التجمع فيما يمنحنا دقائق قليلة جدّاً لنغادر مكان التجمع ، كانت مدرستي لا تغادر المعهد قبل انتهاء الدوام حتى لو أنهت جميع محاضراتها ، فيما تمثل صلاة الظهر في دوائرنا الحكومية وقتاً نهائيّاً لليوم الوظيفي لبعض الموظفين ، لاحظت أن لدى هؤلاء القوم وقتاً للعمل والانضباط لا يخلفونه أبداً فيما يستمتعون بإجازة نهاية الاسبوع كوقت مخصص للمتعة والنزهة والترفيه ، لم ألحظ ما حدثني به معلم المواد الدينية ، بل تبين العكس .. فقد واجهنا المتاعب حتى تعودنا على حياة النظام والانضباط وإن كنا نحنّ إلى ماضينا ونمارسه في معاملاتنا مع الملحقية الثقافية بلندن . هذه التجربة مثلت تغيراً مهمّاً في قناعاتي لكني لم أغير بعد قناعات مدرسي القدير في المرحلة الثانوية .

أما العمل وقيمه فقد صدمتني برقيها ، لم أر من يصنف الأعمال والوظائف إلى "دونية" وشريفة ، كنت أصحو في الصباح الباكر لأرى عامل النظافة من سكان ذات البلد بملامحه الإنجليزية في ذات اليوم الذي أتعامل فيه مع موظف بريطاني في بنك بريطاني كبير ، أصدقكم القول أنني رأيت هنا تطبيقاً عمليّاً لمبادئ نظرية درستها في مناهج

الابتدائية ، فيما يعاني وزير العمل السعودي من هجوم مركز تنقصه القيم في الحد من نشر الثقافة المهنية ، هاجموه لأنه قال في مؤتمر وطني إن النجارة والحدادة والرعي ليست وظائف "دونية" في نظر الإسلام، وهاجموه بانتظام حينما لبس قبعة الطاهي ليوصل رسالة بأن العمل وإن كان قليل الدخل لكنه عظيم المبدأ .

غير أن التغيير لم يطَل قيمي ومبادئي التي تعلمتها من أبي وأمي وجدتي والتي فاقت بأضعاف ما تعلمته في مدرستي ، لم تغير حياة الغرب قناعتي في أن العمل ومشاغل الحياة لا يمكن أن تكون عائقاً عن صلة الرحم وعن تقوية العلاقات الاجتماعية دون نفاق اجتماعي أو مجاملات سخيفة تذهب المعروف ، لم يستطع الغرب أن يغير قناعتي في تهذيب الروح بالإيمان والعبادة التي لا يتدخل فيها أحد ولا يكون فيها بيني وبين ربي وسيط من البشر يحسب لي الحسنات ويكتب لي السيئات ، لم يثنني الغرب عن أن أفكر وأفكر دون قيود من تقاليد أو تراث أو احتكار من أحد للحقيقة حتى أمتلك حق البقاء في هذا الكون .

قراءة في وجه لندن

ومع الاعتذار لسفيرنا السابق في لندن غازي القصيبي فهذا العنوان هو بالضبط عنوان لديوان شعري له ، في كل مرة أزور فيها لندن أتعرف على وجه لها ، أحياناً يحمل الكآبة والبؤس والفقر ، وأحياناً يحمل التحدي ، وأخرى يحمل ملامح السعادة والابتسامة وفي كثير من الأحيان يحمل الحرية .

يغلب على ملامح لندن العراقة قبل المعاصرة ، ما تزال القلاع والقصور والممرات العتيقة كما هي دون تغيير، لذا ليس من العجب أن أقرأ أرقام القرن الخامس عشر على أحد مبانيها ، ولم أستغرب كثيراً حين عرفت أن بنك إنجلترا المركزي تأسس عام ١٦٩٦م وكان وقتها يحدد نسبة لأسعار الفائدة !.

ويحمل وجه لندن ملامح الثقافة والمعرفة الإنسانية وهو الوجه الذي كثيراً ما يجذبني إليها ويجعلني أقبلها مراراً وتكراراً دون ملل ، دائماً ما أحزم حقيبتي الصغيرة والتي لا تحمل سوى تذكرة قطار وخريطة لها ، أحب هذا الوجه كثيراً بعروضها الثقافية والمسرحية حتى لتجد العروض البهلوانية والغريبة وأخرى ثقافية على ضفة نهر التايمز وحتى بالقرب

من مبنى البرلمان العتيق ، أما متاحفها فهي مفتوحة للجميع دون رسوم ، وكل متحف يستحق زيارة يوم كامل ، في متاحف لندن توجد أقدم النقوش وتفاصيل التاريخ وقصة الحضارة ، في زيارتي لمتحف العلوم أدهشتني المعرفة الإنسانية بقدمها ، لم أكن أتخيل شكل الحاسوب كما شاهدته والذي كان عبارة عن ماكينة تشبه مكائن خرط الحديد ، في المتحف البريطاني شاهدت الحضارات الإنسانية تحت سقف واحد وكأنها ما تزال تتنافس ، ما أثار استغرابي هو القسم المخصص للحضارة العربية الإسلامية والتي نسبت للحضارة الفارسية ، في ذات المتحف أبهرتني قبور الفراعنة ونقوشهم ، ومنحوتات اليونان ، وأعمدة الرومان.

ويعكس وجه لندن مظاهر الأرستقراطية والثراء الفاحش في حي المايفير أو من خلال البورصة العالمية والشركات الاستثمارية في مركز لندن الذي لا يوجد فيه مظاهر للحياة بعد انتهاء الدوام اليومي .

وهناك وجه لندن البائس حيث الفقراء والمشردون لا مأوى لهم سوى أرصفة الشوارع ، فهنالك الجرائم في الأحياء المظلمة والسرقات في الشوارع المهجورة والمخدرات في الأماكن المهجورة .

أما وجهها المتسامح فهو الوجه المألوف ، لندن المتسامحة التي تخصص يوماً أسبوعيّاً ركناً آمناً في حديقتها الشهيرة "الهايد بارك" لمن أراد أن يصرخ بحرية أو يناقش بهدوء ، ذهبت لهذا الركن المثير، رأيت كيف يصرخ البعض وكيف يناقش البعض بهدوء ، رأيت كيف يهتم الجميع بموضوعات سياسية ودينية وثقافية باستثناء العرب الذين دائماً

ما يثيرهم "محمود" بآرائه السطحية وصراخه الذي يلفت الجميع، أيقنت أن الحرية وحدها غير كافية لبني يعرب ، كنت ألتفت لأرى الجميع يتناقش بهدوء عن عيسى عليه السلام ، عن الحضارة الأمريكية، عن حقوق الإنسان ، فيما العرب الموجودون يستفرغون قاموس الشتائم بأسلوب منحط ، لكنها لندن.. لم تعترض .

وكما يقول ساكنها خمس عمره غازي القصيبي ، فإن لندن لا تعرف أحداً ، لا يمكن أن تفرح باستقبال أحد أو تحزن لفراق أحد ، يقول في مقاله باي باي لندن:

" إذا نبغ إنسان في لندن، عرفت الدنيا كلها بنبوغه، ولكن متى ينبغ أحد في لندن؟ بين آلاف المعارض التي تعج بعشرات الآلاف من اللوحات الفنية الرائعة، كيف يمكن أن تظهر موهبة شابة؟ بين مئات المحاضرات التي تلقى كل ساعة في قلب العاصمة وحدها، من سيلاحظ هذا المحاضر أو ذاك؟ بين مئات الساسة الذين يتدفقون على «هيثرو» كل صباح، من سيلاحظ أن رئيس جمهورية وصل أو أن رئيس وزراء سافر؟ يا لسذاجة الزائر - كائناً من كان - حين يتوقع أن يلقى معاملة خاصة من لندن التي تضن بالمعاملة الخاصة على نفسها "[1].

هذه لندن .. لا يمكن لكلمات أن تصف حتى وجهاً واحداً لها ، ولا يمكن لأحد أن يقرأ وجهها ، هي كذلك وأعتقد أنها ستبقى كذلك طالما بقيت التواريخ القديمة في أعلى قصورها وطالما بقي المتحدثون في ركن حديقتها .

١- غازي بن عبدالرحمن القصيبي ، باي باي لندن ومقالات أخرى ، مكتبة العبيكان، الرياض ، ٢٠٠٧.

صدمة حضارية من نوع آخر

ولأنني من قرية منسية على ساحل غربي ، فإنني كنت متوقعاً رؤية ناطحات للسماء في وسط لندن وأضواء تنقلني من مكان لآخر ، كنت أتوقع رؤية كل شيء ينقصني في قريتي "الحبيل" ، كنت أتوقع أن الحضارة هي أعمدة الإسمنت وحركة الإلكترون وشاشات البلازما في أعلى المباني ، كنت أتوقع أن حضارة الغرب هي المباني الزجاجية التي شاهدتها لأول مرة في مدينة جدة ، كنت أعتقد أن قريتي هي الوحيدة التي تعتمد على زراعة "الذرة" وتنتظر السيل شهوراً وشهوراً .

لكنني صدمت قليلاً منذ أول خطوة في مطار هيثرو ، أنهينا إجراءاتنا بسهولة كبيرة في مبنى عتيق، أصبحت بعد ذلك أقطع تذكرة نحو وسط المدينة عبر جهاز إلكتروني لأصل إلى المركز في قطار قديم على سكة حديدية منذ منتصف القرن الثامن عشر ، نزلت من القطار ولم أجد "بنقلاديشيّاً" يحمل لي حقيبتي الثقيلة ، رأيت الجميع يعتمدون على أنفسهم ، ففعلت مثلما يفعلون ، كانت المحطة تعكس تفاصيل قرون مضت بقدمها وأصالتها ، كانت تخلو من الرخام اللامع والزجاج الساطع

وفسائل النخل لكنها لم تخل أبداً من خدمات لم أتوقعها بنفسي، كنت أجد كل شيء أحتاجه ، لم أستوعب بعد مفهوم النظام .

بعد شهور قضيتها في مدينة نورج أحسست بمرونة في حياتي لم أتعودها فيما سبق ، كنت أستلذ بإنهاء معاملة في بنك أو إنهاء إجراء من مركز شرطة المدينة ، كنت أنهيها في أقل من عشر دقائق ، كنت أجد أمام باب منزل العائلة ظرفاً بريديّاً به خطاب يفيد بإنهاء كامل معاملتي، كنت ألحظ أن وقتي يسير حسب خطة معينة ، لم أجتهد لذاك كثيراً لكنني كنت ألحظ ذلك عند إنهائي لموعد معين ، بدأت أستوعب قليلاً مفهوم النظام الذي هو أساس المدنية .

دائماً ما يكرر علي صديقي السعودي الذي كان يدرس في ذات المعهد الذي أدرس فيه ، دائماً ما يكرر علي بأن شارعاً في الرياض يفوق أفضل شارع في مدينة "نوريج" ، ودائماً ما أخبره بأن أسوأ شارع في مدينتنا هذه لا يوجد فيه "حفرة" مزعجة أو سائق مخالف أو قاطع لإشارة ، في شوارع هذه المدينة تجد لوحات إلكترونية تخبر السائق بالعدد المتاح من مواقف السيارات ، في شوارع المدينة يعتبر نظام المرور نظاماً صارماً للسائقين وهو ما لم أجده في شوارع قرية منسية أو عاصمة كالرياض .

كنت أصحو في الصباح الباكر فأجد عامل النظافة البريطاني الجنسية يميز سلة النفايات الخاصة بالزجاج ثم يفرغها في سيارة البلدية الخاصة ، وفي اليوم التالي أرى عامل النظافة يأخذ صندوق النفايات الخاص بالأوراق والأطعمة ويفرغه في السيارة المخصصة لذا .

بدأت أستوعب النظام وأتعلمه لكنني لم أمارسه بعد .

في مدينتي الصغيرة التي أدرس فيها مرحلة اللغة تقفل المحلات التجارية أبوابها بحلول الساعة السادسة مساء ، وفي فصل الصيف تكون السادسة هي منتصف وقت العصر ، ومع ذلك لا تحيد عن موعدها سوى ساعة أو أقل ، اضطررت معها إلى تكييف ذاتي مع هذا الوضع ، كنت أخطط لشراء عبوة ماء قبل شرائها بيوم، كنت أشعر بالانزعاج من هذا الوضع بداية الأمر إلا أن الوضع تغير بالنسبة لي تماماً حين عرفت أن وقت الدوام في البقالات لا يختلف عنه في الجامعات وهو ما يوفر قليلاً من العدالة بين الموظفين ممن يحصلون على ذات المميزات ، حينها استوعبت جيداً ما تعنيه مفردة "النظام" فهماً وممارسة، شعرت أنني أسير وفق نظام معين تسهلت معه أكثر شؤون حياتي .

لممارسة الحياة بنظام لذة ومتعة رغم ما يسبقها من لسعات خفيفة إلا أن الوقوف في طابور واحد أمام أو خلف عميد الكلية في مقهى الكلية نشوة لا تعادلها نشوة .

بين قرية الساحل .. ومدينة الريف الإنجليزي

والفارق بينهما تجربة مثيرة وثقافية تختلف حد التباين ، في قريتي الساحلية والتي تعترض الوادي بانتظار السيل المتجه للبحر ، يكون الفرح بالقرب من حافة الوادي وفي الهواء الطلق في باحة مفتوحة تستقبل أفواجاً من أفراد القرية ، تنتشر أجواء الفرحة بحرارة اللقاء في أرجاء الساحة التي تحيط بها معالم البذخ والتبذير ، وفي المقابل هناك في وسط الريف الإنجليزي حيث مدينتي "نوريج" والتي قضيت فيها ما يقرب من ثمانية أشهر قبل أن أنتقل لمدينة "ليستر" لدراسة مرحلة الماجستير ، هنالك في "نوريج" تختلف الأفراح اختلافاً يتبع ذات الثقافة ، تتم مراسم الزواج في احدى الكنائس المغلقة ، وقد يكون في منزل مغلق دون أن يكون للمكان المفتوح وجود ، يحتفظ الجميع بفرحة باردة تصيبهم بإدمان الصمت، فيما تختفي مظاهر التبذير والبذخ لتحل مكانها مظاهر الاعتدال في الأكل والضيافة .

في قريتي الصغيرة معالم ووجوه لا تتغير ، الكل يعرف الكل ، يندر أن يحل وجه غريب بلا عنوان ، تمر شهور وشهور قبل أن يرى والدي وجه غريب في قريتنا وربما حتى في القرى المجاورة ، تكثر اللقاءات والمناسبات

والزيارات المنزلية ، ما زالت القرية تحتفظ بروابط اجتماعية قوية مقارنة بمدن تخلت عنها أمام التغيرات المتسارعة لجو المدينة ، وذلك ما ينطبق على مدينتي الصغيرة "نوريج" والتي تستقبل يوميّاً وجوهاً جديدة وثقافات عديدة ، ومن النادر أن يصادف الشخص وجهاً أكثر من مرة في اليوم في طرقاتها العتيقة ، فقدت المدينة استقلالها بدءاً من محطة القطار التي تزف يوميّاً أناساً أغراباً عن المدينة وانتهاء بجامعتها التي تستقبل وتودع كل سنة وجوهاً وثقافات عديدة، في هذه المدينة وغيرها من المدن تحطمت الروابط الاجتماعية وحلت مكانها المواعيد السابقة والنادرة والمناسبات اليتيمة والرتابة في الأفراح ، اختفت العائلات الممتدة وحلت مكانها العائلة الصغيرة جدّاً .

استوعبت بالمعايشة مفهوم القرية والمدينة ، تقترب القرية كثيراً من حدود العائلة ، وكأن ذات القرية هي عائلة كبيرة فيما تعتبر المدينة محطة على طريق سفر دولي ، في مدينة "نوريج" لم أرَ وجهاً أكثر من مرة في مركز التسوق القريب من منزل العائلة التي أسكن معها، أشعر دائماً أنني نسخة فريدة أمام الغير تماماً كما أراهم، استشعرت الفارق جيداً عندما عدت إلى قريتي في إجازة قصيرة لاحظت خلالها الكثير من الاختلافات.

أكثر ما يعجبني في القرى والمدن البريطانية أنها نسخة مصغرة من العاصمة البريطانية مع فارق بسيط في الحياة الاجتماعية ، تتوفر جميع الخدمات التعليمية والصحية والمعرفية والمواصلات فيها تماماً مثلما هي

في العاصمة ، لم تسمح المدن الصغيرة للعاصمة بالاستئثار بالخدمات ، تبعد مدينة "نوريج" عن العاصمة لندن مسافة زمنية تقدر بالساعتين أقطعها في قطار دقيق المواعيد ثم أعود في ذات اليوم بكل هدوء بعد أن أقضي يوماً صاخباً .

لكن قريتي الساحلية ما زالت تسافر من أجل خدمة تسكت بها سكانها الذين تودعهم مع كل رحلة نحو الشمال، السفر من قريتي بإتجاه الشمال يعتبر قصة بحد ذاته ، تقرأ قريتي رسائل البريد بعد أن يصيبها البرود ويعد أن تفقد المظاريف بهجة الاستلام فيما يسابق رجل البريد في "نوريج" شروق الشمس نحو أبواب المنازل لئلا تفقد الرسائل الورقية وهجها .

ما يعيب المدن والقرى الريفية الإنجليزية من وجهة نظر الثقافة الشرقية هو خلودها للنوم مبكراً في إجازة نهاية الأسبوع ، بعكس العاصمة لندن التي تظل بحركتها حتى شروق الشمس وخاصة في شارع "اجوار روود" الذي استنسخ شوارع المدن العربية بمطاعمها ومقاهيها، لذلك يعتريني حنين لهذا الشارع بين فينة وأخرى لأتناول الشاورما التركية والشاي المغربي والفوضى العربية ، كم أشعر بلذة العروبة حين أكون بعيداً وما ألذ العروبة حين أكون عنها بعيداً.

لم تكن تلك القصة كاملة ، فما زال هنالك الكثير من الاختلاف بين قرية ساحلية ومدينة ريفية ، وللذين يرون إجحاف المقارنة أقول لهم ، لم تكن مدينة "نوريج" سوى عشر عاصمتنا لكنها مستعدة للبقاء بخدماتها الحالية ونظامها الصارم لعقود قادمة .

تفاصيل يومي الإنجليزي

تأخذني التفاصيل اليومية هنا إلى متعة حقيقية أحياناً وإلى كدر أحياناً أخرى ، يبدأ يومي الإنجليزي باستيقاظ ثقيل لا يختلف كثيراً عن الصباح السعودي والذي أجاهد فيه نفسي جهاداً عسيراً حتى أستيقظ، أحاول قدر المستطاع ألا أخسر دقيقة واحدة لئلا يفوتني باص رقم (٩). و بعد أن أكمل تجهيز نفسي أنزل بسرعة متجهاً نحو الثلاجة لآخذ "الساندويش" والذي أعده في الليلة السابقة ،أخبرت أختي فيما بعد أنني عدت لأيام الطفولة بكل تفاصيلها باستثناء الاعتماد على الذات ، أتجه بعدها نحو موقف الباص الذي يقع بقرب البيت مباشرة ، أحياناً يفوتني الباص فأضطر لانتظار باص آخر مما يكفلني الإعداد لاعتذار عن التأخير.

أصل للمعهد تقريباً في الساعة التاسعة والنصف وهو توقيت لا يتغير بتغير الفصول ، و كما يقول الكاتب علي سعد الموسى : لا أعرف ما الذي يستثنينا من بين دول العالم لنبدأ الدوام في الصباح الباكر وقبل أن تفيق العصافير في أعشاشها !؟. لست بحاجة إلى القول بأن مستوى "طريقة التعليم" يختلف كثيراً عن السعودية ، باستطاعتنا أن نطور من

"طريقة تعليمنا" ليصل لمستواهم إلا أننا سنصدم بعقول حجرية "نسبة لصلابتها وليس لقدمها" تناقش الشكليات فقط ، في فصلنا الدراسي وفي الوقت المخصص للنقاش كلٌّ يعبر عن رأيه بكامل الحرية وغالباً ما يكون رأيي مختلفاً عن رأي مدرسي الذي يرد علي بابتسامة ، أما في فصلنا الدراسي في بلدي فإن كلام المدرس خلال ٤٥ دقيقة هو حقائق لا تقبل النقاش ، أخبرت مدرستي بأن مستودعاتنا تختزن من الأجهزة المدرسية أكثر مما تحتويه مستودعات بريطانيا، وأن جامعاتنا تبنى على طراز خمسة نجوم بينما العقول والبحوث غالباً ما تكون غير مصنفة !.

بعد ساعة ونصف الساعة وتحديداً الساعة الحادية عشرة صباحاً تبدأ فترة الإفطار ، وهي فترة محببة لدي أستغلها في إجراء محادثات مع باقي الطلاب من مختلف دول العالم وكثيراً ما تدور المحادثات عن العادات والثقافات وتفاصيل الوطن ، في مساحة صغيرة يجتمع طلاب من أنحاء العالم ليتحدثوا بلغة واحدة ، وحين أجول بنظري أرى كل اثنين يتحدثان بصوت مسموع في نقاش عام ، خلال نصف الساعة أكون قد استفدت الكثير بدءاً من التعرف على ثقافة جديدة وانتهاءً بتمرين مهارة التحدث لدي ، أحياناً أتسلل خفية نحو معمل الإنترنت لأدخل موقع صحيفة الوطن السعودية لأقرأ عناوين المقالات وأحياناً يستهويني الكاتب علي سعد الموسى لأقرأ المقال كاملاً . أعود بعد ذلك لإكمال المحاضرة الثانية والتي تستمر ساعة ونصف الساعة قبل فترة الغداء ، بعد ذلك تكون محاضرة ما بعد الظهر وغالباً ما تكون محاضرة مخصصة

للمحادثة ، وفي هذه المحاضرة تقوم بتدريسنا مدرسة بريطانية تعشق ثقافة الشرق ، تعشق رائحة البخور وطعم الكبسة وكرم العربي ، تفاجأت أكثر حينما اكتشفت أنها تعرف تفاصيل الحياة العربية بشخصياتها الشهيرة كالملك فيصل رحمه الله والوزير أحمد زكي يماني وزير النفط الأسبق ، أخبرتني فيما بعد أن زوجها سوري ، طلبت ذات مرة من صديقي أن يجلب لها بخوراً من الشرق ، حدثتها ذات مرة أن التاريخ يحمل بعض التشويش فيما يختص بقضية فلسطين وأول من سكنها ، فوجدتها تعرف تفاصيل فلسطين الحقيقية .

ينتهي اليوم الدراسي الطويل في الساعة الثالثة والنصف لأعود بعدها إلى المنزل وأحياناً أذهب إلى "الفورم" أو المكتبة وهي مكتبة عامة تحوي خدمات كثيرة مثل استعارة الكتب المجانية أو الأفلام إضافة إلى خدمة الإنترنت والطباعة والاستعلامات العامة عن أي شيء يختص بمقاطعة "نورفولك" ، وهي ما نفتقده في محافظات كثيرة في السعودية .أصل البيت في الساعة الرابعة عصراً حيث أسترخي قليلاً إلى أن يحين موعد العشاء في تمام الساعة السادسة والنصف ، وهي معاناة أخرى من معانيات الغربة وهي عدم وجود الأكل المناسب، فليس في كل مرة يكون الطبق لذيذاً غير أن ربة البيت والتي أطلق عليها اسم "المذر" ذكية جدّاً فهي لا تقوم بإعداد الوجبة مرة ثانية إذا لاحظت أنني لم أستهلكها بشكل جيد ، بعد العشاء أجلس فترة من الزمن مع المذر نشاهد الأخبار معاً ثم مسلسلاً إنجليزيّاً ، أثارت إعجابي الخدمة التلفزيونية في بريطانيا ،

حيث تم تخصيص قناة خاصة لكل مقاطعة تنقل تفاصيل الأخبار بحيث لا يمكن مشاهدتها في مقاطعة أخرى ، ولذلك تجد الإنجليز يحرصون على مشاهدة الأخبار لأنها تنقل لهم الأحداث في مدينتهم أو مقاطعتهم وهذا الشيء ينطبق على الراديو والصحف اليومية ، حينما وقع الاعتداء على أحد زملائي قامت وسائل الإعلام هنا بالتفاعل السريع مع القضية وأبرزتها في الصحف و الإعلام السمعي والمرئي، لكنني أكون في موقف لا أحسد عليه حينما تبث قناة BBC مقطعاً لأحد الأشخاص الملثمين معتقلاً أحد الجنود ويهدد بقتله أمام شاشات التلفزة ، حينها لا أملك سوى دفع التهمة عني وكأنني على موعد غداً في المحكمة، من السهل جدّاً أن يمثل شخص كهذا ثقافة أمة بأكملها ومن السهل جدّاً أن يعمم "الآخر" تصرفه ذلك ، بعد أن أنتهي من مشاهدة الأخبار والمسلسل التلفزيوني الذي ينقل لي ثقافة الإنجليز، أصعد لغرفتي الصغيرة لأبدأ المذاكرة التي استصعبتها في بداية الأمر رغم حداثة عهدي بالجامعة ، وأتسلل أحياناً إلى "مواقع" الشرق لأتابع المستجدات الفكرية في "ساحتنا" والتي لا تمل من بعث مشكلة فكرية ليبدأ بعدها التصنيف والإقصاء الذي لم أجده هنا !

باص رقم (٩)

عندما وصلت لأول مرة إلى مدينة "نوريج" كنت أستخدم التاكسي في تنقلاتي ، غير أن ربة المنزل التي أسكن معها نصحتني بعدم استخدامه إلا في حالات الضرورة ، وأن علي أن أستخدم الباص في تنقلاتي كونه أرخص بكثير وعمليّاً بشكل أكبر ، لم أقتنع في بداية الأمر لأنني كنت أحسبه كباص البلد في جدة بشكله المتهالك والذي يتزاحم فيه الناس من أجل الحصول على مقعد، غير أنني اكتشفت عكس ذلك تماماً بعد شرائي لأول تذكرة أسبوعية ابتدأتها بتوجهي إلى المركز الإسلامي لتناول وجبة الإفطار الرمضانية ، لم أكن أعرف متى سيتوقف الباص عند المركز الإسلامي والذي لا أعرفه هو الآخر ، أخبرت سائق الباص عن ذات المركز وأخبرني بأنه لم يسمع به لكنه سيوصلني للجامعة والتي يوجد بها مركز إسلامي من الممكن أن يؤدي الغرض !. قبلت ذلك وجلست في مقعدي انتظاراً لإشارة من السائق ، كان الجميع يدخلون الباص ويعرضون تذاكرهم بيسر وسلاسة دون تأخير أو إثارة أية مشكلات ، وعندما يهم أحد بالخروج فليس عليه سوى أن يقرع على أحد الأجراس ليتوقف بعدها الباص في نقطة معينة ، كان الباص يمر

بجانب منزلي كل ربع ساعة ، أخبرني الباص بأني علي أن أنزل هنا ، وقد كان بالفعل المركز الإسلامي الذي أبحث عنه وتناولت فيما بعد وجبة الإفطار الرمضانية فيه .

بعد أن انتهيت من لقاء الأصدقاء في المركز الإسلامي كان علي أن أعود للمنزل وذلك في ثاني يوم لي في هذه المدينة ، خرجت من المركز باتجاه موقف الباصات ، رأيت الجميع ينتظرون الباص ، ورأيت بعضهم لا يستقلون الباص حين يأتي فعرفت أنهم ينتظرون باصاً معيناً وهنا بدأت الحيرة ، لم أستفسر من ربة البيت عن رقم الباص الذي سيعيدني للمنزل، استقللت باصاً عشوائيّاً لمركز المدينة ومنه استقللت باصاً آخر نحو منزلي، إلا أنني نزلت في موقف خطأ في وقت متأخر من الليل ، شعرت بحالة من التيه والضياع ، لا أعرف عنوان البيت ولاأعرف حتى الاتجاهات الأساسية في هذه المدينة ، حاولت أن أخمن جهة معينة إلا أنني لم أستطع توجهت بعدها لشارع لا أعرفه وعندما تحققت من ضياعي اتصلت بربة البيت والتي وجدتها قلقة علي بعد تأخري لساعات ، شعرت حينها بحنان الأمومة ، وصفت لي الطريق إلا أنني لم أستوعب ذلك ، أوقفت بعدها رجلاً يمتطي دراجة هوائية وأعطيته الهاتف الجوال ليحادث ربة البيت التي وصفت له الطريق تماماً وهو بدوره وجهني نحو المنزل ، كانت تلك أول تجربة لي ولدت في داخلي إحباطاً كبيراً من المدينة وطريقة التنقل إلا أنني تعودت بعد ذلك بعد أن تعرفت على أرقام الباصات .

كان الباص رقم (٩) هو باصاً مميزاً لدي كونه الباص الذي

أستقله يومياً للوصول إلى المعهد ، كنت أنتظره كل صباح في تمام الساعة التاسعة والثلث ، وكان ذات الباص يحمل عجائز في طريقهن لعملهن ، كنت أتأمل الحيوية في أجسادهن رغم كبر سنهن وكنت أغبطهن على ثقتهن واعتمادهن على أنفسهن رغم أنهن في آخر سني العمر ، كنت ألحظ لدى ركوبي الباص مدى احترام المسنين والمسنات وإتاحة المقاعد لهم ، كنت أعتقد أن هذا التقليد هو حكر لثقافتنا كما أخبرنا بذلك مراراً ، علمني باص (٩) الكثير والكثير ، علمني الالتزام بالمواعيد ، كنت أتحمل ضريبة التأخير عن محاضراتي الدراسية إذا ما تأخرت على الباص نصف دقيقة وربما أقل في كثير من الأحيان ، أحياناً أرى الباص يتحرك أمامي ولا أستطيع إيقافه كونه وصل لنقطة الوقوف قبل أن أصل بثوانٍ .

ذات يوم تأخر الباص كثيراً أثناء عودتي من المعهد فاستقللت باصاً آخر ذا رقم مختلف فقدمت في ذات اليوم شكوى ضد باص (٩) فكان الاتصال من مسؤول في الشركة في ذات اليوم ليقدم الاعتذار ويرسل تذكرة مفتوحة ليوم واحد ، اعتقد صديقي أنهم سيعطونني تذكرة شهر كامل ، فقلت له يا صديقي لقد كانت المشكلة في يوم واحد وهؤلاء القوم لا ينقصون أحداً حقّاً ولا يزيدون .

بعد فترة ألفت الباص رقم (٩) وسائقيه فما زلت أحتفظ بجميع التذاكر الأسبوعية حتى الآن ، ذلك أنني أرى للباص أهمية كبيرة في تكوين صفحة ذكرياتي تماماً مثل الباص رقم (٦) والذي كان يقل غازي

القصيبي من " شقة الحرية " إلى كلية الحقوق أثناء دراسته في مصر ، علمني الباص الانضباط التام كما علمني طريقة الاعتذار ، علمني الباص آداب التعامل مع الجالسين كما عرفني على بعض الذين ينتظرونه معي، بعد أن انتقلت لمدينة "ليستر" اخترت سكناً في داخل الجامعة افتقدت ثقافة الباصات ، افتقدت الانضباط والانتظار ، افتقدت شراء التذاكر في وقت محدد والحرص على الحصول على تخفيض معين ، افتقدت حوارات الركاب وثرثراتهم، أخبرت صديقي بأنني سأستقل باص خط البلد في جدة لأتذكر مدينتي وعائلتي الإنجليزية ، وسأنتظر باص البلد حتى لو تأخر ساعة !.

جولة في شارع العرب Edgware Road

لا أعتقد أن سعوديّاً زار لندن وربما إنجلترا دون أن يتجول في شارع "اجوار روود" ففي هذا الشارع تختفي المعالم الغربية إلا من الباص الأحمر وتحل محلها الثقافة العربية بكل تجلياتها ، تنتشر في أرجاء الشارع رائحة المعسل وهي تغلب رائحة البخور الذي تجتهد بعض المحال التجارية في بيعه هناك ، تصف صحيفة التايمز البريطانية الرصينة "اجوار روود" أو شارع العرب بوصف بيروت الصغيرة أو القاهرة الصغيرة حيث يتحول الشارع في فصل الصيف إلى شارع عربي يتحول البريطاني فيه إلى رجل غريب ودخيل على ثقافة الشارع، تقول الصحيفة إن الرجل العربي ينام بالنهار ويسهر في الليل في هذا الشارع بعد أن يأكل من الشاورما ليواصل سهرته على "الشيشة" والتي تمثل ثقافية عربية بالنسبة للإنجليز .

يتميز هذا الشارع الذي يقع في غرب لندن بموقعه الشهير حيث ينتهي أحد أطرافه بحديقة "الهايد بارك" الشهيرة وشارع أوكسفورد التجاري ، ويقترب كثيراً من حي المايفير الذي يعتبر حي الصفوة من الأثرياء، واستطاع هذا الشارع بثقافته العربية أن يجبر أكبر شاشات

السينما في لندن على عرض أفلام عربية ، تنتشر المطاعم العربية ذات الجودة العالية في هذا الشارع حتى الأكلة العراقية الشهيرة "المسكوف" وهي طريقة عراقية لشواء السمك تقدم بجودة عالية ربما تنافس مطاعم عراقية في ذات البلد .

غير أن هذا الشارع الذي يحلو للعرب إطلاق مسمى "شارع العرب" عليه لا يخلو من الاستخفاف بالعقول العربية عبر كثير من الكتب والمؤلفات التي تستنزف الجيب قبل العقل عن طريق عناوين جذابة وفضائحية تجبر الزائر على تصفح محتواها ، أشعر بالخجل الشديد حين تنتشر هذه الكتب التي تدعي نشر فضائح الزعماء السياسيين أو الشخصيات الاقتصادية أو التصنيفات القبلية ، أشعر بالخجل حين يعتبر الأوروبيون أن ذلك هو نتاج العقل العربي بينما توازن مكتباتهم بين ذلك وذاك ، رغم أن هنالك أكثر من دار محترمة للنشر والتوزيع مثل دار الساقي التي تهتم بالجاد من الكتب والمؤلفات .

لم يقدر كثير من العرب الذين قدموا لهذا الشارع والأحياء المحيطة به لتكوين حياتهم ، لم يقدروا هذه الفرصة والحرية لكي يرسموا وجهاً حضارياً مشرقاً بدلاً من رسم معالم الفوضى ، لم يلتزموا بأنظمة البلد من حيث النظافة وقانون منع التدخين في الأماكن المغلقة واستخدام منبهات السيارات والتي لا تكاد تسمع سوى في هذا الشارع .

وشارع العرب "إجوار روود" هو واحد من شوارع عديدة في لندن تخصص لثقافة معينة ، فهنالك شارع ياباني وشارع برازيلي وحي

صومالي وحي صيني ، وكل شارع أو حي يوفر مستلزمات ذات الثقافة من مأكولات ومؤلفات ووسائل إعلامية وغيرها مما يجعل لندن قرية صغيرة في طريقها لفقدان هويتها البريطانية ، وهذا ما اكتشفته مع كل زيارة لي للندن ، فذات مرة تهت بعد يوم شاق قضيته مشياً على الأقدام في التعرف على شمال لندن وانتهى بي المطاف إلى منطقة تقل فيها مواقف الباصات ، غير أني استقللت باصاً أوصلني لمنطقة تغلب عليها الملامح الأفريقية ، شعرت بالخوف لما تتميز به هذه المناطق من انخفاض معدل الأمن وارتفاع معدل الجريمة مقارنة بغيرها من أحياء لندن ، قررت بعدها استخدام وسيلة مترو الأنفاق والذي أوصلني مجدداً لشارع العرب.

أشعر في كثير من الأحيان بحنين لهذا الشارع لتناول ساندوتش من الشاورما وقراءة صحيفة عربية وتذوق الحلويات العربية الشهية كالكنافة والبقلاوة وغيرهما والتي تتوفر بشكل كبير في هذا الشارع ، وأحياناً أتجول في بعض البقالات التي تبيع بعض الكتب السخيفة مع المواد الغذائية ، وتخلط في أدراجها بين الغث والسمين ، في إحدى زياراتي لها قرأت عنواناً جذاباً بخط مميز في أعلى غلاف كتاب يقول "سارع قبل مصادرة الكتاب " مستغلاً سذاجة القارئ العربي .

ما زلت أحمل أملاً في أن يتحول هذا الشارع إلى تظاهرة ثقافية ولو ليوم وحيد في السنة الميلادية لعرض ثقافتنا العربية لكل زائر ، فكثير من الشوارع التي تنتمي لمدن العالم تتميز بملامح ثقافية وجادة ، ما زلت

أحلم بأن يلتزم هذا الشارع بالأنظمة في التقليل من استخدام منبهات السيارات والتخفيف من التهور ، ما زلت آمل أن يلتزم المشاة بإشارات المرور وعدم رمي المخلفات على الشارع حتى لا يتحول إلى جبال من النفايات كما تقول صحيفة التايمز البريطانية.

أوقفوا عرض مزايين الإبل .. وصور الخيمة والصحراء

اعتاد الطلاب العرب وخاصة السعوديون منهم على إقامة معرض أو يوم يختص بعرض ثقافة بلدانهم وما تتميز به ، ويتكلف الطلاب السعوديون بشكل أكبر في هذا اليوم وذلك بمجهودات شخصية في كثير من الأحيان حيث يتكفل أحدهم بإحضار "الشماغ السعودي" فيما يتكفل آخر بالقهوة العربية ، ولا أعرف حقيقة من الذي يتكفل بإحضار الخيمة.

دائماً ما أبدي امتعاضي من كثير من هذه المعارض والأيام السعودية، لسبب واحد وهو أنها ترسخ صورة نمطية ترسمت في أذهان الغرب ، صورة مفادها أننا ما زلنا نسكن الخيام في وسط الصحراء ونستخدم الجمال وسيلة للتنقل ، يخبرني صديقي الذي سكن مع عائلة إنجليزية أنها سألته ذات يوم ما إذا كان يذهب لمقر عمله راكباً "جملاً"!!.

أرفض تماماً حين تلصق بنا هذه الصورة النمطية الفجة ونحن الذين نسابق الزمن بالنهضة العمرانية والتعليمية ، أرفض أن نكون صورة تحتل الناقة فيها المشهد كاملاً فيما تنفق الدولة مبالغ باهظة على جسور وطرقات تربط مدنها ولا يعترضها سوى جمل سائب !.

لذلك كنت دائماً ما أعتب على كثير من زملائي بأن يكفوا عن

عرض صور الجمال والخيام والصحراء ، أخبرتهم أن لدينا أهم من ذلك بكثير ، أخبرتهم أن لدينا ما نقدمه للإنسان الآخر ، لدينا جمال العمارة الإسلامية والبناء والتشييد تتجلى في الحرمين الشريفين ، لدينا حفل سنوي ديني وثقافي كبير وهو أيام الحج تجمع بين ثقافات شتى يجمعها دين واحد ، دائماً ما أخبرهم أن هنالك جامعة في الساحل الغربي تتقدم بخطا متسارعة نحو العالمية وهي جامعة الملك عبدالله للعلوم والتقنية ، كنت لا أمل من إخبار عائلتي الإنجليزية أن لدينا مدينة معلقة بين السماء والأرض تلتقط قطرات المطر قبل وصولها للأرض لكنني لم أرَ صوراً لهذه المدينة - أبها- وكأن النفوس فضلت الجفاف على الخضرة ، كثيراً ما أتمنى أن يتصدر القسم الرياضي في المعرض السعودي إستاد الملك فهد بالرياض بجمال تصميمه لنخبر الجميع بأننا طرف في النهضة والتطور الذي تتسابق فيه كثير من الدول.

دائماً ما أردد بأن اليابان ليست بحاجة لتعريف الناس بريادتها في عالم التكنولوجيا ، فهذه هي الصورة النمطية التي تكونت عنها وربما تكون محقة إلى حد كبير، لذا فلا ضير أن تعرض جزءاً من تراثها وثقافتها ، أما نحن فإننا دولة حديثة تسعى لإيجاد موطئ قدم بين الأمم، وتسعى لتعريف العالم بمنجزاتها الحضارية وأنها ليست مجرد صحراء تحوي جمالاً سائبة وخياماً مهجورة بجوار سيارات الدفع الرباعي ، يحزنني جدّاً حين أقرأ إعلاناً في مكان ما عن معرض للسيارات اليابانية أو المنتجات الصينية أو المخترعات الأمريكية أو الجامعات البريطانية

فيما تصر الأندية السعودية في بريطانيا على نصب الخيمة وعرض صور البعارين !.

سألت مدرستي ذات يوم عن الصورة التي تختزنها في ذهنها عن السعودية فأخبرتني أن كل سعودي يملك ناقة يستخدمها في تنقله من مكان لآخر ، التفت مباشرة إلى أحد زملائي الذي كان يعرض قبل ذلك بيوم صور المزايين من إبله ، استهلكت جزءاً كبيراً من وقت المحاضرة الدرسية لأوضح لها عكس ذلك تماماً وأسعفني في ذلك جهازي المحمول والذي كان يحوي صوراً من السعودية ، أبدت مدرستي دهشة كبيرة مستغربة أن تحوي السعودية كل هذه النهضة العمرانية ، نسيت أن أخبرها ألا تجيب أي دعوة لحضور يوم أو معرض سعودي !.

التعليم في بريطانيا

في أول محاضرة لي ضمن مرحلة الدراسات العليا، دخل علينا مدرس المادة ووجه لنا سؤالاً عن اختصار كلمة معينة ضمن تخصصنا ، لم يجب أحد من الطلاب، ولم يشرحها هو بدوره ، ولم يحاول أحد سؤاله عنها ، في اليوم التالي جاء وسألنا ذات السؤال ، لم نجبه أيضاً ، ولم يحاول هو بدوره إيضاحها ، حينها قال لنا ببرود : هذا أول اختبار لكم عن مدى جاهزيتكم لهذه المرحلة المهمة من الدراسات العليا ، وأضاف بسخرية : كنت أعتقد أن أول شيء ستفعلونه بعد عودتكم للمنزل هو البحث عن معنى هذه الكلمة ، لكنكم كنتم تنتظرون مدرساً لشرحها، وهذا ما لن تجدوه في مرحلة الماجستير .

كان ذلك الموقف أول إشارة لي تشير أنني مقبل على مرحلة بحثية وتدريبية أكبر منها تلقينية ، بعد أكثر من أسبوع زودنا أحد المدرسين بمذكرة تحتوي لغة برمجة جديدة علينا في الحاسوب ، وبعدها كلفنا بعمل برنامج اعتماداً على هذه اللغة ، لم يكلف نفسه عناء الشرح ، بل كان مهتمّاً بمعلومات نظرية بحتة فيما ترك لنا مهمة التدريب والبحث .

يتميز التعليم في بريطانيا بجديته واعتماده على الدراسات العلمية

والتقويم المتواصل ، ويتميز المدرسون بصفة عامة بقابليتهم لتقبل النقاش في أية لحظة وبأية وسيلة ، كنت من النادر جدّاً أن أذهب لمكتب أحد الدكاترة ، بل لا أعرف مكاتب أكثرهم ، كانت وسيلة التخاطب الوحيدة هي البريد الإلكتروني ، لم أكن أعرف جدية التواصل عن طريق البريد الإلكتروني إلا من خلال تعاملي به بشكل مستمر في تواصلي مع أقسام الجامعة .

يتعجب صديقي حين يسأل مدرس المادة والذي بلغ من الكبر عتيّاً عن مسألة فيرد عليه بكل برود وبساطة بأنه لا يعلم ، وكان يضيف إذا كان ملحّاً في معرفة الإجابة بأنه سيبحث عنها !. لم أسمع كلمة "لا أعلم" من أحد مدرسيّ في مرحلة البكالوريوس ، بل في كثير من الأحيان يتحول السؤال إلى واجب حين لا يعرفها الدكتور وكأنه عقاب لكل من تسول له نفسه السؤال .

لا تتميز الجامعات البريطانية وربما غيرها من الجامعات الأوروبية والأمريكية ، لا تتميز بفخامة المباني كالتي توجد في السعودية ، بل لا أستبعد انبهارهم حين يشاهدون جامعة مثل جامعة الملك عبدالعزيز أو جامعة الملك سعود ، وقد يضاهي مبنى كلية واحدة فيها جامعة بأكملها في بريطانيا ، في جامعة مثل جامعة كامبريدج تصل أعمار بعض المباني إلى مئات السنين وهي التي تأسست قبل أكثر من تسعمائة عام ، لا يعول البريطانيون كثيراً على المباني الحديثة والتي تظهر في كثير من الأحيان بمظهر نشاز أمام بعض المباني العريقة التي تعود لمئات السنين .

غير أن الإنفاق على المادة العلمية والأبحاث التي تجري في أحدث

المختبرات يفوق كثيراً ما تنفقه دول الخليج مجتمعة ، في معامل الجامعة التي أدرس فيها تظهر مدى الدقة والتنظيم والحرص على توفير الوسائل الدراسية بشكل فعال ، كنت لا أجد مشكلة في متابعة أبحاثي مع قوة وفاعلية الشبكة المعلوماتية التي تغطي الجامعة ، فيما تهتم جامعاتنا في السعودية بجودة الرخام وبريق الزجاج وفسائل النخيل التي تنتشر في أرجاء الحرم الجامعي .

ومن الخدمات التي تقدمها كثير من الجامعات هي إتاحة المكتبات خلال أربع وعشرين ساعة عدا يوم السبت مع إتاحة جميع المصادر وخدمات التصوير والخدمات الإلكترونية إضافة إلى خدمات التموين، كنت ألحظ الدقة في طرح أي خدمة جديدة تهم الطالب، أعترف لكم بأنني استشعرت قيمة الطالب كما لم أستشعرها من قبل، أشعر أن الجميع وجد من أجل الطالب وحده، تذكرت الكلية التي أعمل فيها في وطني حين ننسى جميعاً الطلاب في فوضى المعاملات الإدارية والمالية وتعاميم الدورات والتحذير وإعلانات المناقصات والسلف والميزانية ننسى معها أننا في كلية أنشئت من أجل الطلاب، حين لم أكن أقرأ تعميماً يهم الطالب إلا نادراً مقارنة مع باقي المعاملات الأخرى ، كثيراً ما أردد بأن عودتي إلى طالب من بعد مهنة التدريس جعلتني أفكر كثيراً في تغيير تعاملي بشكل جذري مع طلابي إذا عدت كما كنت مدرساً .

أحببت الحياة هنا .. لبساطتها

في أول أسبوع في سكني مع عائلتي البريطانية لاحظت مدى التواضع والبساطة في ممارسة الحياة ، عندما أصحو في الصباح الباكر أرى عامل النظافة من ذات الجنسية البريطانية يجمع أكياس الزبالة من أمام كل منزل في الدائرة السكنية التي أسكن فيها دون أن يرى في ذلك أدنى عيب ، ودون أن ينتقده أحد من ذات جنسيته بأن هذا العمل لا يليق به كبريطاني الجنسية والذي كانت دولته في يوم ما تسيطر على مساحة لا تغرب عنها الشمس ، وفي نهاية المساء يعود هذا العامل إلى منزل لا يقل في قيمته عن منزل أستاذ في جامعة عريقة أو موظف في بنك عريق أو عامل في مصنع كبير ، لا يختلف هنا في بريطانيا الأستاذ الجامعي عن عامل النظافة عن موظف الصرف الصحي ، جميعهم يتلقون ذات المعاملة من مجتمعهم ، لافرق بين عامل نظافة وغيره.

حينما أذهب إلى جامعتي أجد بساطة التعامل مع مدرس المادة حين يناقشنا نحن الطلاب في أمر ما ، لم أرَ التكلف الذي كان يسيطر على مدرسي المرحلة الجامعية في السعودية والذين كان يفصلنا عنهم فاصل سميك من الكبرياء ، كان المدرس في جامعتي في بريطانيا يستمع بكل

تقدير لأسئلتنا مهما بلغت درجتها من السخافة والغباء، كان يجيب عنها كما لوكانت أسئلة جديرة بالإجابة ، يتوقف دكتور المحاضرة عن شرحه لنقطة مهمة بمجرد رؤيته طالباً رافعاً يده ، كنا نشعر مع استغراب بالتقدير البالغ والاحترام الكبير من دكتور يبلغ من العمر عتيّاً ، تفاجأت في أول أيام دراستي بمدرسنا يقف معنا في ذات الطابور بانتظار قهوة الصباح ، كنت سأرتكب حماقة بتقديمه في طابور الانتظار معتمداً على خلفية ثقافية فوضوية تخترق النظام بحجة الاحترام.

يخبرني أحد أصدقائي منتقداً أحد معلميه بأنه لم يلبس لبساً لائقاً بمهنته التعليمية وعائدها المالي الذي يحتم عليه أن يتكلف في لبسه وتعامله ، أخبرته ، بعد أن قضيت شهوراً، بأن هؤلاء لا يتكلفون ولا يتكبرون ولا يتعالون في معاملتهم مع الغير ، لم أرَ طيلة مكوثي في بريطانيا أي تمييز بين فقير وغني أو بين عرق وآخر ، سكنت في مدينة تحوي أعراقاً كثيرة من مختلف العالم، وتدين بكثير من ديانات هذا الكون ، ولم أرَ أي نوع من أنواع العنصرية ضد هؤلاء "الأجانب" والذين يمثلون في مدينة "ليستر" أكثر من سكانها الأصليين ورغم ذلك يمارسون طقوسهم الدينية وعاداتهم الاجتماعية بكل أريحية .

كنت أشعر ببساطة ممارسة الحياة في بريطانيا، لا أحد يجبرني على الالتزام بتقاليد بالية عفا عليها الزمن ، في بادئ الأمر كنت أشتري ساندويتشاً وأمـرره على جميع من في صالة الانتظار في معهد اللغة الإنجليزية حتى أتحقق من عدم رغبة الجميع فيه ، اكتسبت ذلك التقليد

من تعاليم الوادي في قريتي الساحلية وكان عدم القيام بذلك يعتبر نوعاً من اختراق العادات .

تفاجأت كثيراً مديرتي في معهد اللغة الإنجليزية حين أخبرتها بالعدد الكبير الذي نذبحه من الخراف في كثير من المناسبات وأن أكثر من نصفه يذهب لأكياس الزبالة ، حينها ردت علي بأن ذلك يعود لوفرة المال !، أخبرتني فيما بعد بأن أقل من ربع عجل كان كافياً لإطعام ضيوفها في حفل زواجها وأن زواجها لم يكلفها هي ذات المبلغ الذي يثقل كاهل الزوج الذي تسول له نفسه الزواج قبل أن يجمع ثروة تغطي تكاليف الزواج ، أخبرتني مدرستي أن زواجهم يخلو من التكلف تفادياً للتكاليف، ويخلو من التبذير تفادياً للتكلف .

أحببت الحياة هنا ببساطتها وبعدها عن التكلف ، أحببت الحياة هنا كونها لم تعطِ وجهها المشرق لمتكبر متغطرس ، أحببت الحياة هنا حين رأيت كيف يتساوى عامل النظافة بدكتور يعطيني في ذات الصباح محاضرة علمية بحتة عن تقنيات جديدة للاتصال .

تعلمت الكفاح من "جيم" .. لكنني لم أطبقه!

مررت هنا في بريطانيا بصداقات مختلفة يجبرني بعضها على التأمل وإعادة التفكير ، أحد هؤلاء الأصدقاء هو "جيم" ، يوناني الجنسية ، درسنا معاً مرحلة اللغة الإنجليزية ، يكن "جيم" احتراماً وتقديراً للمسلمين عامة سابقاً وللسعودية بشكل خاص لاحقاً ، في يوم جمعة صادف محاضرة دراسية قام مجموعة من الشباب يقودهم أحد الدارسين من البحرين وطلبوا من مديرة المعهد التي كانت تعطينا المحاضرة ، طالبوها بتأجيلها إلى ما بعد الصلاة ، أخبروها أن هذه العبادة مهمة جدّاً لنا ولا بد من حضورها جماعة في المسجد وفي وقت معين لا يقبل التأخير كثيراً ، ردت علينا المديرة بأنها لاتمانع إذا وافق كل من في الفصل الدراسي من طلاب ، بدأ التصويت ، كان أول الموافقين "جيم" ، أخبرنا أنه لا يطيق الجلوس في المعهد إلى وقت متأخر في آخر يوم في الأسبوع ، ولكنه تقديراً للسعوديين وللمسلمين فإنه سيوافق ، ووافقت على مضض إحدى الطالبات من فنزويلا ، لكنها اشترطت ألا ترى أحداً منا في مقهى الجامعة أو في أي مكان وقت الصلاة !!.

عوداً إلى "جيم" الذي أخبرني فيما بعد أنه جمع مبلغاً كبيراً من

المال حتى يتمكن من الحصول على بعثة دراسية ، سألته عن قدرته على توفير مبلغ للسكن والمعيشة ، أخبرني أنه سيبحث عن عمل يستطيع منه الحصول على دخل مناسب لتسديد السكن والمعيشة وما تبقى من الرسوم الدراسية ، كان يذهب للجامعة في الصباح الباكر ، وللعمل في أحد المقاهي بعد أن ينتهي من جميع المحاضرات ، وكنت أصادفه كثيراً ليلاً لينجز كثيراً من أبحاثه وأعماله المتعلقة بدراسته .

تعجب أحد أصدقائي من القدرة العجيبة لدى "جيم" على النضال والكفاح ومواجهة الصعاب من أجل الحصول على شهادة ، فكرت مليّاً في حال من يتسلم مكافأة شهرية توازي ثلث مرتب أستاذ جامعي ، إضافة إلى نصف راتب شهري من مقر العمل ، وتذاكر سفر دولية وتسديد رسوم اختبارات اللغة ورسوم كامل البعثة إضافة إلى ضمان وظيفي لوظيفته السابقة ، تلك ميزات لا يحصل عليها أحد هنا إلا موظفي الشركات الكبيرة والمستشفيات الشهيرة .

ندعي كثيراً الكفاح والنضال فيما الكثير منا لم يواجه ما يواجهه جيم من مصاعب وتحديات يستلذ بعدها بالحصول على الشهادة العلمية ومن ثم عليه أن يكمل مشواره في الحصول على دورات تدريبية جادة لتحسين مستواه الوظيفي أو الحصول على وظيفة أكبر ، ما أجمل النضال من أجل الحصول على غاية .

طلبت من "جيم" فيما بعد أن يبحث لي عن وظيفة بعد أن قررت أن أمارس شيئاً من الكفاح ، وأن أشعر نفسي بمتعة النضال من أجل "لقمة

العيش" ، أخبرني "جيم" بأنه وجد عملاً مناسباً لي لا يتطلب أي شهادة أو مهارة بأجر ٥ باوندات بريطانية في الساعة الواحدة والتي كانت تساوي تقريباً ٣٠ ريالاً سعودياً، والعمل عبارة عن محاسب في مقهي في محطة المطار الوحيدة في المدينة ، تحمست في البداية كثيراً ، لكنني تهاونت كثيراً ومن ثم نسيت الموضوع نهائياً إذ لم أكن في حاجة للمال وقتذاك، كانت رغبتي للعمل من أجل العمل فقط ، كانت فرصة حقيقية لن تتكرر لي في بلدي ، كانت فرصة لأمارس أعمالاً يحذر كثير من الشباب الفقير والمحتاج في بلدي من ممارستها خوفاً من "العيب" الاجتماعي.

يتخلى كثير من الطلاب السعوديين هنا في بريطانيا من الحرج والقيود في البحث عن عمل في أوقات فراغهم كمحاسب في متجر أو بائع في محل ملابس أو حتى جرسون في مطعم بدخل يومي جيد مستفيدين من نظام الحد الأدنى لأجر الساعة الواحدة ، لكن القناعات تعود كما هي من أول ساعة حين العودة للوطن !.

كامبريدج

منذ ثاني أسبوع من وصولي لبريطانيا كنت متحمساً لزيارة مدينة "كامبريدج" التي كثيراً ما كنت أقرأ عنها وأتمنى زيارتها ظنّاً مني أنها مدينة حية نابضة بالحياة تتراقص ليلاً وتسهر حتى الصباح ، لكنها كانت غير ذلك تماماً ، حجزت تذكرة القطار وقطعتها من محطة "نوريج" وخلال ساعة كنت في "كامبريدج" ، تفاجأت كثيراً كوني جديد عهد ببريطانيا تفاجأت بقدم المباني وعراقة المشاهد ، توجهت فوراً لجامعة "كامبريدج" وهي تكاد تكون المعلم الوحيد في المدينة الذي يجذب السياح من أنحاء العالم ، كيف لجامعة أن تجذب سياحاً لمشاهدتها من الخارج فقط ؟ .

كانت المباني قديمة جدّاً وعريقة جدّاً ، كانت وحدها ترسم تاريخ المدينة ، تجولت في كليتين اثنتين فقط من أصل ٣١ كلية ، تعجبت كثيراً : كيف لهذه المباني أن تخرج عدداً كبيراً من العلماء غيروا مسار البشرية مثل نيوتن وطمسون وكريك ، كيف لهذه الجامعة أن تستحوذ بعلمائها على ٨٣ جائزة من جوائز نوبل العالمية ، لكنني أيقنت بذلك حين عرفت أنها تأسست في بداية القرن الثالث عشر !.

يغلب على هذه المدينة الطلاب والمدرسون من جنسيات كثيرة ،

وتكثر فيها الدراجات الهوائية بشكل ملحوظ ، فلا يجد دكتور في ذات الجامعة وربما على وشك الحصول على جائزة نوبل إن لم ينلها لا يجد حرجاً في أن يستقل دراجة هوائية ليذهب إلى الجامعة أو السوق، الكثير هنا في "كامبريدج" يستقلون الدراجات الهوائية وهي بالنسبة لهم وسيلة عملية أكثر منها ترفيهية، حتى أن الجهات المختصة قد وضعت مسارات خاصة للدراجات الهوائية في شوارع المدينة .

ويغلب على مدينة "كامبريدج" شوارعها الضيقة وذلك بسبب قدمها ، يحدثني أحد أصدقائي عن نقاش دار بين خليجي وبريطاني حين عاب الخليجي على مدينته "كامبريدج"ضيق الشوارع وقدم المباني، حينها رد عليه البريطاني بأن في هذه المدينة ثاني أقدم جامعات العالم تأسست قبل أكثر من ٨٠٠ عام أي إنها تأسست قبل أن تتأسس دول بأكملها .

أخذت بعد ذلك جولة حول النهر والذي لم أستطع التجديف فيه ، ذلك لأن الجامعة قد خصصته في إجازة نهاية الأسبوع لترفيه طلابها، توجهت بعد ذلك للسوق الشعبي الذي يقع في وسط المدينة الصغيرة والتي لا يتجاوز عدد سكانها ١٠٨٠٠٠ نسمة أي نصف عدد من يسكنون محافظتي التي أتبع لها إداريّاً ، تجولت في سوقها الشعبي الذي يكتظ بالمتسوقين أكثر من السوق الحديث الذي يلاصق هذا السوق الشعبي وكأن السكان عشقوا العراقة والقدم ، وتتوسط المدينة حديقة كبيرة جدّاً تجمع الكثير من سكان المدينة وقد أقام فيها بعض الطلاب السعوديين

عرضة سعودية شملت رقصة الحرب الشمالية لفتت أنظار الكثير ممن كانوا يتجولون قريباً منها .

وفي طريق عودتي لمدينتي مغادراً "كامبريدج" ، جلست أتأمل كيف كانت صورتي الانطباعية عنها وكيف هي الآن ، كيف أني كنت أعتقدها مدينة لا تنام وإذا بها تنام مع أول دقيقة لغروب شمسها ولكن بعضهم يسهرون في معامل جامعتها من أجل اكتشاف شفرة الـ DNA ، كنت أعتقد أنها مدينة حديثة تطاول بجامعتها السحاب، لكنها كانت أقدم من دول وحضارات ، وقدمت جامعتها العتيقة للعالم حلولاً طبية وعلمية أنقذت العالم من مشكلات وكوارث ، سألني صديقي لماذا لا يهدمون مباني هذه الجامعة ليبنوا أفضل منها طالما تملك الجامعة الكثير من المال ؟ أخبرته على الفور ، بأن الجامعة لا تريد أن تهدم تاريخاً لتبني مبنى زجاجيّاً ، فأموالها ستصرف في حل مشكلات علمية صعبة ودفع ضرر قد يطالنا ونحن في منازلنا الفارهة .

في بريطانيا العلم قبل القول والعمل

لكل دولة من دول الغرب تجربة خاصة في بناء الحضارة الغربية، والتي قال عنها الدكتور البليهي إنها - أي الحضارة الغربية المعاصرة - قد كسرت حلقة الدوران التي كانت تدور فيها كل الحضارات السابقة.×

وأنا هنا لن أخوض في أسباب هذه الحضارة بالتفصيل، لكنني سأتحدث عن أساس مهم من أسس الحضارة الغربية والذي درسته في منهج التوحيد في المرحلة الابتدائية وهو: العلم قبل القول والعمل.

قضيت إلى الآن في بريطانيا ما يقارب الستة الأشهر. لاحظت خلالها أن الاعتماد الرئيس في كل خطوة يقدم عليها الفرد أو الحكومة على العلم بأرقامه وحروفه، تجد الشركات لا تقدم على مشروع إلا بعد دراسة جادة متخمة بالأرقام، وتجد لدى الجامعة خطة بالدقيقة والرقم الدقيق لعشر سنوات قادمة، وتجد مواعيد الباص والقطار والمترو مبنية على أبحاث واستقراءات جادة للواقع، أي إن العلم هنا قبل بلاغة اللسان وعرق الجبين، ولست بحاجة إلى القول إن هذه الحضارة هي نتاج طبيعي لعلوم شتى تلقت ذات القدر من الاهتمام، ولو أننا استنسخنا كل مؤلفاتنا من عصر صدر الإسلام إلى وقتنا الحاضر بعدد فروع العلم لكنا في

مكانة لا تقل عن مكانة أوروبا وأمريكا، غير أن التركيز لدينا كان على فرع أو فرعين من فروع العلم. بينما التهم الجهل بطبقاته ضروب العلم الأخرى.

أما القراءة والاطلاع فهما يقتربان من أن يكونا عادة لدى الكثير من الإنجليز خلال الوقت الضائع في انتظار باص أو قطار، يساعدهم في ذلك وجود مكتبات مفتوحة تسمى "Forum" تحتوي على الكثير من الخدمات بدءاً بالاستعارة المجانية للكتب العلمية والأفلام والموسيقا، وانتهاء بخدمات الطباعة والتصوير وتصفح الإنترنت.

لاحظت أن أكثر العوائل الإنجليزية تهتم بتسجيل عضوية لها في هذه المكتبة، وخاصة لأطفالهم، وذلك لتعويدهم على القراءة منذ الصغر، وحتى في المكتبات التجارية تجد موظفاً مختصّاً بطلبات الأطفال، وتعريفهم بالكتب المناسبة لهم بتعامل يناسب طفولتهم.

والبحث العلمي هنا له نتائج سريعة وفعالة على أرض الواقع، لا تكاد تمر مشكلة هنا دون إجراء الكثير من الأبحاث العلمية الرصينة ذات النتائج المفيدة، وهذه من الفوارق المهمة التي سيؤدي الوعي بها إلى تشخيص مكامن الخلل في مسيرة البحث العلمي التي لا تكاد تذكر لدينا.

غير أن التفاؤل يحيط بي في لحظات التفكير العميقة، وخاصة عندما سألتني مدرستي الإنجليزية عن الحركة غير العادية لقدوم الطلاب السعوديين لبريطانيا لنيل الدرجات العلمية العليا بضمان حكومي كامل،

لأخبرها بأن هذه سياسة ملك جعل التعليم وتطوير البحث العلمي على رأس أولوياته، وذلك بابتعاث الآلاف، وإنشاء أول جامعة بحثية على مستوى الشرق الأوسط قد تكون منارة بحثية عالمية تساعدنا على التقدم قليلاً نحو الصفوف الأولى، فخير صفوف الأمم أولها.

× السبت ٢٨ ربيع الأول ١٤٢٩هـ الموافق ٥ أبريل ٢٠٠٨م العدد (٢٧٤٥) السنة الثامنة.

رحلة إلى قلعة وريك Warwick

وسط فوضى الدراسة والمحاضرات والرسائل الإلكترونية من هنا وهناك ، وصلتني رسالة من قسم الطلاب الأجانب تفيد بتنظيم رحلة إلى قلعة "وريك" والتي تقع في طرف مدينة "وريك" الهادئة ، طرت بها فرحاً كونها ستصادف احتفالاً بعيد "الهلوين" رغم عدم تحمسي عادة لزيارة القلاع ، ذلك أنها تذكرني بالقتل والتعذيب الذي يسبق دائماً بناء أي حضارة !.

كانت رسوم الرحلة الرمزية لا تتعدى قيمة وجبة دسمة من أحد مطاعم ماكدونالدز الأمريكية ، سارعت على الفور إلى مكتب الطلاب الأجانب الذي يتم اختيار رئيسه من أحد الطلاب الدارسين بالاقتراع العلني ، قمت بدفع المبلغ وتلقيت تعليمات اللقاء بهذا الخصوص، يعجبني النشاط الكبير الذي يقوم به هذا المكتب والاهتمام الكبير الذي يتلقاه من الجامعة ، فبين فترة وأخرى ينظم المكتب رحلة سياحية تثقيفية إلى إحدى المدن والتي كانت من بينها مدينة "أكسفورد" بجامعتها الشهيرة ومتاحفها العلمية ، ووقف هذا المكتب مع الطلاب الهنود أثناء الهجمات الإرهابية في بومباي وظل يسهل لهم الاتصالات حتى ساعة متأخرة

من الليل ، هذا بالإضافة إلى الأنشطة التوعوية والتثقيفية على مستوى مدينة ليستر كالحفاظ على البيئة ومحاربة العنف وطرق التعامل مع الجار ووسائل تكوين العلاقات الاجتماعية بطرق مشوقة وعلمية .

انتظرت السبت بشوق عارم ، فهذه هي الرحلة الأولى لي ضمن وفد طلابي ، وفي صباح السبت توجهت لمبنى اتحاد الطلاب الذي لم يكن يبعد عن مسكني سوى دقيقة مشياً على الأقدام ، تجمعنا في الوقت المناسب في الباص المخصص والذي كان يغلب على ركابه الصينيون واليابانيون ، لم أرَ أكثر من هاتين الجنسيتين حبّاً للسياحة والاستكشاف، حتى حدا ببعض الجهات السياحية المنظمة إلى تخصيص منشورات بلغاتهم الخاصة ، لم أتساءل ولن أتساءل عن مشورات باللغة العربية كوني العربي الوحيد في هذه الرحلة التي يحسبها كثير من زملائي كنوع من "الفضاوة"!.

تحرك الباص في الموعد المحدد دون أن نتلقى تهديداً بأن الباص سيتحرك في موعده المحدد ، وبعد أقل من ساعة كنا في مدينة "وريك " وتحديداً في قلعة "وريك" الكبيرة ، كنت أحسبها قلعة مهجورة نسجت فيها العناكب بيوتها وأخفت معالمها ذرات الغبار ، كنت أحسبها مجرد منظر لوقفة لا تتعدى الدقائق العشر كما الكثير من القلاع ، لكنني فوجئت أولاً أن لها بوابة ضخمة بحراس وموظفين ومواقف للباصات وأخرى للسيارات الصغيرة مما يدل أن هنالك تنظيماً بارعاً لاستقبال الزوار يبدأ بتزويدهم بخريطة ملونة للقلعة وينتهي بتوديعهم بكتيب يحوي الفعاليات القادمة .

دخلت القلعة العتيقة بصوالينها الفاخرة وأبراجها العاجية ، كنت

أشاهد مشاهد تمثيلية لأساطير العيد ، لم أزد على النفس من آثامها ، لكنني لم أحرمها بهجتها وسرورها ، تجولت في داخل القلعة ، شاهدت منزل الزعيم ، وعاينت البذخ الذي كان يعيشه قبل أكثر من ١٥٠ عاماً، شاهدت حياته اليومية بالتفصيل في غرفة نومه وصالون استراحته وحتى غرفة ملابسه الرسمية ، شاهدت حياة خَدَمه وغرفهم الخاصة ، عاينت أعمالهم الخاصة وتفاصيل أيامهم كما لو كانت قبل ١٥٠ عاماً، استغرقت التاريخ حتى قرن ونصف القرن للوراء من خلال أقل من عشر حجرات تحتفظ بذات أثاثها وقطعها الثمينة .

تحوي القلعة مناشط كثيرة لا يمكن معها أن يجد الملل طريقاً للنفس ، استغل القائمون على القلعة مناسبة عيد الهالوين الذي يقام في اليوم الأخير من شهر أكتوبر وفيه يتم تزيين البيوت ووضع اليقطين على مداخلها دفعاً للأرواح الشريرة كما يعتقدون ، ولم تختفِ هذه الأساطير داخل سور القلعة ، تظهر بين فينة وأخرى مشاهد لقتل رجل مزيف يمثل الشر ، فيما الأطفال يشاهدون ذلك بنوع من المرح ، كنت أتعجب من طريقة تحول القلعة إلى مكان محبب ومرغوب لدى الجميع بكثرة الأنشطة والفعاليات والعروض التي حولت ذلك العيد إلى بهجة وسرور على الرغم من كونه عيداً غير رسمي ، تعجبت من توفر جميع الخدمات التي يحتاجها الزائر لهذه القلعة .

خرجت من هذه القلعة حرّاً طليقاً على الرغم من أنني دخلتها كذلك ، لكنها أسرتني بروعتها وصدقها في رسم التاريخ في غرفها

الجميلة والمزركشة والتي عكست تاريخاً ناءت بحمله الكتب ، أسرتني حين أغرقتني في متاهاتها الجميلة والتي كنت أتظاهر بالخوف من ظلمتها، أسرتني تلك القلعة بجمال موقعها المطل على نهر جار وأرض يباب ، لم أصدق ذاكرتي التي تخلت عن الصورة الكئيبة للقلاع في لحظات قليلة فيما لا تزال تتذكر نقوش جدرانها الداخلية ، كم تتمنى ذاكرتي أن تمارس ذات التجربة مع مدائن صالح .

النقد والمراجعة في المجتمعات الغربية!

ينعم أحد أصدقائي الذي يكره الغرب كرهاً أعمى، ينعم بحرية في نقد ما يريد ، وبفضاء أوسع في تقديم شكوى في ما لا يرضيه ، ينعم بنعمة النظام في تسيير أموره اليومية ، وينعم حتى بالاسترخاء على كرسي جامعته التي تعلمه ما ينتجه المختبر المجاور من حقائق توصل لها بعد سنوات من الجد والمثابرة ، غير أن صديقي هذا ما فتئ يشتم الغرب بأقذع الأوصاف ، بأطبائه ومهندسيه، بمعلميه وموظفيه ، كونهم دنيويين لا يهتمون للآخرة، وكون أمانتهم وإخلاصهم في عملهم هو للمال لا غير ، كان يشتمهم في الليل فيما يصبح أبناؤه في مدارسهم المجانية ويصبح هو في جامعاتهم يزاحم المواطن الغربي دون شكر لمعروف أو سكوت بإحسان .

لم يكن صديقي هذا حالة استثنائية ، بل كان مماثلاً لكثيرين ممن جاؤوا بعقول محشوة بكره كل ما هو غربي حتى حدا بأحدهم من الحيرة أن سأل في منتدى حواري عن حكم الابتسامة في وجه معلمه الكافر ! في سؤال ينبئ بخلل كبير في تركيبة مبتعث تجاوز من العمر افتراضاً العقدين ، أكاد أجزم أن للجهل وسيطرة الخرافة دوراً في كره المنهج

التجريبي الذي تعتمده الحضارة الغربية في رقيها وبقائها .

في كتابتي لمشاهداتي هذه ، كنت ألحظ كثيراً من المشاهدات التي تبهرني بقيمها إلا أنني كنت أتمهل قليلاً في الحكم عليها ، لكنني صادفت أن قرأت مكاشفات الدكتور إبراهيم البليهي ولفت نظري قوله :

إن الحضارة الوحيدة التي تملك مقومات الصعود الدائم، هي الحضارة الغربية بأساسها اليوناني وتكوينها المعاصر المدهش، لأنها تملك آليات النقد والحفز والمراجعة والاعتراف بعدم الاكتمال، إنها تبدأ بتأكيد أصالة الجهل وأولوية الوهم، ثم تعمل جاهدة للتغلب النسبي على الجهل المركب والوهم المتأصل في الثقافات البشرية، إنها تؤمن باستحالة امتلاك الحقيقة المطلقة، كما تؤمن بأن الكمال البشري محال، فعلى الإنسان أن يسعى جاهداً إليه مع الاعتراف باستحالة بلوغه، لذلك فإنها الحضارة الوحيدة التي هي في حالة نمو دائم ومراجعات مستمرة وتصحيحات لا تتوقف وكشوف متصلة. عكاظ ، الموقع الإلكتروني ، العدد ٢٨٦٧ [١].

وبالفعل هذا ما لحظته منذ أن قدمت هنا ، النقد الدائم للذات ، وعدم ادعاء الحقيقة كاملة ، في طريقي لإحدى المدن البريطانية قرأت إعلاناً لإحدى شركات المواصلات تفتخر بوصولها لنسبة رضاء لم تتجاوز التسعين بالمائة ، تذكرت على الفور بأسى أقل نسبة منطوقة من مسؤول عربي لم تنزل عن الخمسة والتسعين في دلالات لخدمات صحية قبل أن

١- مكاشفات إبراهيم البليهي ، عبدالعزيز قاسم ، صحيفة عكاظ ، العدد ٢٨٦٧ ، ٢٣ أبريل ٢٠٠٩.

تكون نسبة لمواصلات بين المدن .

في جامعتي ، يتحول نقدها إلى مهمة يمارسها المسؤول الجامعي قبل الطالب ، كنت أتفاجأ بتقرير تصدره المكتبة عن انزعاج المكتبة من وجود نقص لبعض الكتب في أوقات الذروة ، وكنت أتعجب كثيراً من رئيس الفريق التقني حين كان يرسل لنا رسائل إلكترونية يخبرنا أن ما تم إنجازه هو دون المأمول وأنه يتقبل النقد والشكوى حول نظام معين بصدر رحب ، كان ما يلبث أن يرسل لنا مرة أخرى أنه تلقى ملاحظة وسيعمل على الأخذ بها .

لم يكن نقد الذات هو مطلب المنظرين للحضارة الغربية ، بل كان ثقافة سائدة ترفض المجاملة على حساب المصلحة ، وترفض ادعاء الحقيقة المطلقة وتثق بما يقوله العلم وما تنتجه التجربة ، ولكم أن تتخيلوا قرية في زاوية قصية من هذا العالم تملك معملاً للتجربة ، وترفض أي فرد يدعي امتلاك الحقيقة المطلقة ، وتجتمع بشكل يومي لنقد وضعها وتعتقد داخليّاً أن كل خطوة تخطوها هي مجرد خطوة وليست ألف ميل ، لا تستبعد أن تنمو حضارة في هذه القرية لتفرض سيطرتها على العالم أجمع بفلسفتها وتفكيرها ، شكراً للبليهي فقد قلت ما عجزت أن أقوله وأنا أعايشهم غرباً ، فكيف سأقول ما شاهدته حول ذلك شرقاً ؟!.

التعلم ،التطوع وتطوير الذات ..

في ليلة شتائية كنت أتبادل الحديث مع ربة المنزل الذي أقضي مرحلة اللغة ساكناً بين جدرانه التي تحتضن أسبوعيّاً جنسية من شتى البقاع ، أخبرتني بأنها تدخر جزءاً من دخلها في سبيل تعليم حفيدتها الموسيقا قبل دخولها المدرسة وهي التي لم تتجاوز العام !. وكوني من بيئة لا تهتم لمثل هذه الأمور بادرتها بالسؤال ، ولماذا تخططون من الآن في إعطائها دورات وبرامج خاصة قبل دخولها المدرسة طالما تكفل لها ذات المدرسة الحد الأعلى من التأهيل ، أخبرتني أن الموسيقا هي غذاء الروح ومهذب الأخلاق ، ولا بد أن تتعلمها قبل دخولها المدرسة!.

هكذا يتحول التعليم والتهذيب الشغل الشاغل لربة العائلة تجاه أبنائها ، وحين يتحول السلوك السوي إلى غاية تبذل فيها الجدة قبل الأم ما تملكه من أجرة ودخل، أخبرتني ربة المنزل فيما بعد أنها نجحت في إدخال حفيدتها في معهد مخصص لاكتشاف وتنمية المواهب ، صمتُّ على الفور خوفاً من أسئلتها التي تسألها ببراءة وتصيبني في مقتل !.

وحينما انخرطت في مرحلة الماجستير ، صادفت أكثر من جنسية كانت تعرض سيرتها الذاتية والتي لا تخلو من تجربة مثيرة في قطاع

خاص وتجاري ، وكانت ذات السيرة لا تخلو من دورة تقنية أو مهنية أو حتى شخصية تطويرية كالإسعافات الأولية أو التعامل مع الذات ، كنا نحن السعوديين الوحيدين الذين لا نملك سيرة ذاتية تحوي ما يمكن أن تحويه من تطوير للذات، كان أغلبنا يكتب بالخط العريض "مدرس في كلية .. لمدة.." ، أصبحت بعدها أضحك على مثل هذه التجربة التي لا تتعدى كونها تجربة سنة واحدة تتكرر بتكرار السنوات دون أن تضيف جديداً مثيراً لذات السيرة .

تحمست بعدها كثيراً ، وقررت أن أبدأ في تطوير ذاتي ، قررت أولاً إتقان لغة أخرى غير اللغة الإنجليزية، توجهت مباشرة إلى قسم خدمات الطلاب وسجلت في دورة لتعلم لغة أخرى ، سجلت بعدها كمتطوع في تقديم النصائح والإرشادات في جامعتي وكانت تلك تجربة مثيرة كوني كنت أحتفظ بمفهوم آخر للتطوع ارتبط بتنظيف مسجدنا رغم نظافته وبتوزيع المنشورات الدعوية على الصف الأول من ذات المسجد رغم أن نصفه لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، كنا نوزعها ونجتهد في التخلص منها اعتقاداً منا أن الأجر يتناسب مع كثرة التوزيع .

لم يكن مفهوم التطوع يخرج عن إطار المسجد أو المنشورات الدعوية ، بينما في زيارة لقسم الخدمات الطلابية في جامعتي تفاجأت بتنوع مجالات التطوع، عرض علي المشرف مهمة تطوعية تختص بمشروع توعوي يهدف إلى رفع الوعي بأهمية الحفاظ على البيئة، وعرض علي برنامجاً اجتماعيّاً آخر يهدف إلى عمل زيارات اجتماعية

برفقة أخصائي اجتماعي لتقديم بعض النصائح الاجتماعية لكثير من الطلاب الدارسين أو العائلات التي تقطن في مدينتي "ليستر" ، فيما يسمح القسم باستقبال البرامج التطوعية من الطلاب أنفسهم مع تقديم الدعم المالي لهم .

وصادفت ذات مرة ، خلال جولة نقاهة في مركز المدينة المكتظ ، شابة استوقفتني لتسألني عن رأيي حول حمل الأطفال للأسلحة ، وبعد أن أخبرتها برأيي المعارض طلبت مني عنواني للمشاركة معهم للمطالبة بإصدار قوانين صارمة لمواجهة هذه المشكلة إضافة إلى المشاركة معهم في برنامج توعوي يبين خطورة حمل الأطفال لهذه الأسلحة والتي تدخل من ضمنها "السكاكين" الحادة التي تباع في بعض محلات الهدايا ، أبديت موافقتي لأكتسب تجربة في طريقة التطوع ونشر الوعي بطريقة حديثة ، لكن هل سيتطوع أحد معي إذا ما طالبت بمنع الآباء من ممارسة العنف مع أطفالهم وخاصة في الأماكن العامة؟.

حديث في المطارات ...

للمطار في نفسي مساحة فريدة ، ذلك أنه النقطة الوحيدة التي تفارقها قدمي باتجاه نقطة أخرى تطؤها قدمي ، ورغم أن المرحوم طلال مداح صور المطار موسيقياً في أكثر من أغنية إلا أن له في قلبي صوراً أخرى تختلط فيها صور جازان بلندن وجدة بكوالالمبور والدمام بشارل ديجول في باريس والرياض بجاكرتا وحائل بجنيف ، وفي كل صالة خارجية أو داخلية يتولد لدي شعور تتجاذبه التناقضات التي تختلط بمذاق كوب من القهوة في انتظار استكشاف مدينة جديدة أو ثقافة جديدة أو ربما حياة جديدة.

للرحلات الجوية تفاعل خاص يبدأ من الساعة الأولى والتي غالباً ما تكون مزعجة ، إلى الساعة الأخيرة والتي يتفاجأ فيها الراكب "بتغيير العادات" وربما المبادئ!، في أرض المطار تلتقي طائرة من دولة تبيع الموز بطائرة من دولة تشرب النفط ، وفي صالته تختلط السحنات السمراء بسحنات بني الأصفر ، وفي مراكزها المالية تمتزج العملات الضعيفة بالقوية وتلتقي جميعها عند ورقة الدولار!.

في نقطة التفتيش يتساوى الجميع ، ويتلبس الجميع بالشك والريبة

، لا أحد يمكن أن يتجاوز خط التفتيش حتى قائد الطائرة ، وقبل المنطقة الآمنة تتزاحم وداعة القبلات وحرارة الأحضان وتتصاعد لغة الوداع بمختلف اللغات واللهجات .

في مطار هيثرو الذي لم يكن المطار الدولي الأول الذي أدخله وليس الأفخم إلا أنني شعرت فيه بشعور ارتياح ، بدءاً من التنظيم والمساواة وانتهاءً بسهولة الخدمات التي أوصلتنا لوسط لندن بسهولة كبيرة ، وفي زيارتي للعاصمة الفرنسية باريس وقعت في مأزق الحجوزات حيث صادفت زيارتي إجازة رسمية اضطررت معها إلى السكن في فندق يقع بالقرب من المطار لمدة أربعة أيام بلياليهن ، وكنت أثناء ذهابي لوسط العاصمة أو أطرافها أمر بمحطة القطار الخاصة بالمطار ، كنت أشاهد يوميّاً وجوهاً مختلفة من شتى أنحاء العالم ، وكنت في أوقات انتظاري للقطار أتأمل تحركاتهم السريعة هنا وهناك، في كل دقيقة يأتي فوج من كل فج عميق من هذا العالم ، شكراً لحياة المطار التي علمتني تقاسيم الوجوه وسرعة وتيرة الحياة حتى كنت إخالها أسرع مما هي واقعاً .

في زيارتي لدولة عربية لا تبعد سوى ٣ ساعات بالطائرة عن بريطانيا نزلت في مطار عاصمتها الحديث، وفوجئت أولاً بضياع حقيبتي ، وبسوء التعامل، لاحظت تفشي ظاهرة الرشوة التي افتقدتها لسنوات ، لم أصدق حينما طلب مني الشرطي المخصص لحراسة إحدى البوابات مبلغاً من المال نظير دخولي !. وأنا الذي قدمت للتو من أزحم مطارات الكون بكل يسر وسهولة ، ما يثير حفيظتي هو السؤال الذي يراودني دائماً حينما

أرى ذلك الأوروبي يعبر جميع البوابات دون مضايقات أو "بقشيش" فيما يضطر العربي وخصوصاً الخليجي إلى دفع هذا "البقشيش" !.

وفي خروجي من ذات المطار العربي كنت أعبر بوابات الجوازات والتفتيش فيما النظرات تلاحقني تارة وطلبات البقشيش تارة أخرى حتى ظننت أنني متسربل ببطاقات الائتمان وأتدثر بالشيكات السياحية وأنا الذي لا أملك سوى تذكرة الرجوع إلى مطار مديني "ليستر" الذي أنهيت فيه إجراءاتي دون نظرات مريبة أو "شحاذة" نظامية ، يبرهن عالمنا العربي دائماً على أننا نحتاج لمائة سنة أخرى حتى نستوعب مفهوم النظام .

حوار وصراخ ..
صورة لنقاشات مبتعثين سعوديين

اعتاد الطلاب السعوديون في كل مدينة على تأسيس نادٍ سعودي يهتم بتنظيم شؤونهم ، ومع تأسيس النادي تنشأ المجموعات الحوارية على الإنترنت أو "القروبات" والتي يتبادل خلالها الطلاب بصراخ عالٍ بعض أفكارهم التي تعكس السائد العام ، كنا عبر مجموعة بريدية نتبادل الأفكار بريبة وشك وتصنيف ، كان أحدهم يرسل موضوعاً كما لو كان يرمي سنارة لاصطياد سمكة ، أكلت الطعم ذات مرة ، وكنت في كل موضوع أعرض رأيي بجرأة كبيرة مغترّاً بمساحة الحرية التي دائماً ما أسمع عنها في بلاد الغرب حتى لو كانت عبر مجموعة حوارية لطلاب سعوديين .

وفي استراحة المعهد يكون الصوت العربي هو الصوت الأعلى، ودائماً ما كنا نرسخ مقولة "أن العرب ظاهرة صوتية" كان النقاش يحتدم وتختلط الآيات القرآنية بالأحاديث الضعيفة فيما يتخلل النقاش الترهيب والوعيد، كان الوقت المخصص لتبادل الأحاديث مع الجنسيات الأخرى يتقلص بسبب هذه النقاشات التي لم تكن تتعدى المقارنة بين ما يراه المبتعث هنا وبين ما يحدث في وطنه ، وبين هذا وذلك تظهر للسطح

أسئلة تعكس مدى ضحالة الثقافة وقصور التعليم وبراعة الأدلجة .

في مهمة "حضارية" مدنية انطلقنا ذات يوم من مدينتي "نوريج" نحو أكاديمية الملك فهد في لندن لخوض الانتخابات السنوية لرئاسة الأندية الطلابية السعودية ، أخبرنا قبلها أنه يجب أن نصوت لشخص بعينه ، وافقنا على الفور رغم الإقناع الذي كان يمارسه رئيس النادي بأنه يجب علينا أن نصوت وفقاً لقناعتنا ، كان التصويت لدي تجربة أولى كوني لم أخض تجربة الانتخابات البلدية في وطني ، أخبرتنا اللجنة المنظمة أنه يستحسن التصويت بعد استعراض البرامج الانتخابية ، إلا أن لهفتي جعلتني أرمي الورقة الانتخابية في الصندوق المخصص قبل بدء البرامج الانتخابية التي حولها أحد المرشحين إلى خطبة توعوية كان ينبهنا فيها بين حين وآخر أنه لا يقصد منها منصباً دنيويّاً وإنما هي فرصة لتجمعنا وتذكيرنا بالله ، شكرناه ، ودعونا الله أن يجزيه الخير الذي يرجوه .

وبعد انتهاء البرامج الانتخابية ، ظهر مقترح بإتاحة الفرصة للمرأة للتصويت في اختيار أعضاء رئاسة الأندية، وكانت تلك فرصة سانحة للصراخ والفوضى تحولت معها القاعة الكبيرة إلى ضجة وفوضى ، اقترح أحدهم في لحظتها ودون تنظيم سابق إجراء تصويت على هذا الموضوع عن طريق رفع الأيدي ، تطوع أحدهم بحساب الأيدي المرفوعة ، وعندما فرغ من مهمته نسي ما إذا كانت الأيدي المرفوعة هي التي تؤيد أو تعارض ، ثم عاود الحساب في صورة ترسخ ثقافة الفوضى والارتجال،

وبعد أن ظهرت النتيجة برفض صوت الطالبة المبتعثة اختلطت أصوات التهليل بأصوات الاحتجاج ، لم أكن أصدق أذني حين سمعت مبتعثاً يقول: لن أسمح لزوجتي أن تصوت لرجل وأن تهتم لبرنامج رجل أو تتابع أخبار رجل غيري !

غير أن الأمل دائماً ما يحدوني بأن سني الغربة سيكون لها تأثير ولو بعد حين في تشتيت الثقافة السائدة، وزرع الأسئلة المثيرة للجدل في نفوس الطلاب ، لا بد أن يكون لموقف الاصطفاف في طابور بانتظار باص الصباح أثر في نفس الطالب حين يجاهد الفوضى أمام مدخل مسجده أو بقالة قريته ، لا يمكن ألا يكون لاحترام يواجهه في كل مكان في مدينته في أقصى الغرب أو الشرق أي أثر في حياته حين يعود لوطنه ، لا يمكن أن يبقى الصراخ كما هو على حدته فيما الهدوء في النقاش يعم حتى ركن المتحدثين في حديقة الهايد بارك بعيداً عن المتحدثين العرب .

حتى في بريطانيا .. يلاحقنا الوعظ

عوداً للحديث عن الأندية السعودية ، تصلني على الدوام رسائل ودعوات تفيد بزيارة الداعية المعروف أو الشيخ الواعظ الشهير لإلقاء محاضرات توعوية تفيدنا في أمور ديننا ، كنت بطبيعة الحال أتجاهل هذه الدعوات لقناعتي التامة بأننا كطلاب مبتعثين بحاجة أكثر إلى أن نسمع تجربة طبيب قضى جزءاً من حياته هنا ، أو إلى إبداعات وأفكار مهندس تشرب مدارس معمارية غربية ومزجها بنظيرتها الشرقية ، نحن فعلاً بحاجة لتجربة ومشاهدات مثقف أو ناقد يمكن أن نستفيد منها، كان ينقصنا بالفعل أديب أريب أو شخصية سياسية أو دبلوماسية تمتعنا بأحاديثها بدلاً من كلام مكرور يتحدث حول حرمة الذهاب إلى السينما أو الجدل حول جواز أكل شطيرة البرجر من أحد فروع ماكدونالدز ، أو شرب كوب من القهوة في أحد فروع ستاربكس !.

ما زلت مندهشاً من رسالة وصلتني تصر على أحد الأندية التي لم تستضف داعية أو واعظاً أن تبادر إلى حجز موعد من هذا الواعظ قبل امتلاء جدوله بمواعيد موزعة على خارطة بريطانيا العظمى ، وفيما تعجز بعض الأندية أو المراكز التابعة لها عن الحصول على موعد ضمن

أجندة الداعية ، تبادر إلى نقل بث تلفزيوني مباشر لئلا تفوتها الفرصة الثمينة ، فيما خطبة واحدة من خطب الجمعة كفيلة باختصار كل ما يقوله الداعية في رحلته المدفوعة.

ذات يوم تلقيت دعوة من الملحقية الثقافية بلندن لحضور حفل تكريم ملحقها السابق الدكتور عبدالله الناصر ، وكان من حسن الطالع توقيت الحفل الذي تلا "حفلة" انتخابات دورة جديدة لرئاسة الأندية، وصلنا لمقر الحفل في الوقت المناسب ، كانت القاعة كبيرة وممتلئة ، لفت نظري التباين بين هذه القاعة والقاعة المجاورة بأضوائها الحمراء الخافتة وأجسادها الناعمة والرقيقة ، وكنا نصعد نحن وضيوف تلك القاعة على ذات السلم ونمشي في ذات البهو فيما نفترق عند مدخل القاعتين .

كان الصف الأمامي يضم السفير وبعض الكتاب والمثقفين مثل قينان الغامدي وزياد الدريس وعبدالله المعطاني وعبدالرحمن العشماوي ومرزوق بن تنباك وصالح الشيحي والكثير من الكتاب والمثقفين ، لم تخلُ بالتأكيد تلك الأمسية الماتعة من ذكر "جراح الأمة" في إحدى قصائد العشماوي ، غير أن كلمة زياد الدريس شدت المسامع وجذبت الابتسامات لما بين سطورها .

كنت أتساءل بعد أن انتهت الأمسية والتي كثرت فيها كلمات المجاملة إلى حد تناقص معها الحضور ، كنت أتساءل عن سبب ندرة مثل هذه الأمسيات التي تضيف المتعة ، وتعطينا فرصة للاستماع إلى تجربة لمثقف

دون وصاية أو وعظ ، فعاصمة ثقافية مثل "لندن" تحتضن الكثير من المثقفين والأدباء والشعراء والدبلوماسيين وهي مهوى الكثير من الشخصيات الثقافية التي من الممكن أن تثري جداول الأندية السعودية بدلاً من خطب وعظية تلاحقنا حتى في بريطانيا !.

سعوديات في بريطانيا..
يشربن القهوة بأمان!

يخبرني صديقي بزهو كبير أن زوجته تعتمد على نفسها للخروج إلى السوق في مركز المدينة مستخدمة وسائل النقل العامة (الباص) فهي تحمل بطاقة مواصلات أسبوعية وبطاقة فيزا بنكية للتسوق مع أطفالها ، ثم تعود متى شاءت للمنزل دون مضايقات أو حتى دون قلق منه، كثيراً ما يخبرني صديقي أنه على استعداد لإعطاء زوجته سيارة خاصة لو كانت على دراية بقيادة السيارة ، فالوضع هنا – كما يقول- آمن ومطمئن .

لم يكن ذلك رأي صديقي وحده وطريقته ، بل كثير من السعوديين هنا يسلكون ذات المسلك ، تتغير القناعات كثيراً وتعود لسابقها مع أول خطوة نحو صالة داخلية في مطار محلي ، في بريطانيا تخرج المرأة "السعودية" إلى مركز المدينة قادمة من أطرافها عبر باص المدينة دون نظرة مريبة أو مضايقة من أحد ، في المدن البريطانية تلبس السعودية ما شاءت من الملابس والحجاب دون أن تلفت نظر أحد أو تفتن أوروبيّاً جاء للتسوق في سوق وسط المدينة ، في معهد الجامعة تتحدث السعودية مع صديق زوجها

أو أخيها دون ريبة من أحد ودون شك وظنون تفسد البواطن .

في يوم سبت بهي ومشمس ، خرجت لمركز المدينة في مدينتي "ليستر" من أجل كوب من القهوة الإيطالية المرة في مقهى ذي إطلالة بهية على تقاطع طرق ، طلبت كوباً من القهوة وجلست في طرف المقهى، لاحظت ثلاث شابات سعوديات في ذات المقهى يتبادلن الأحاديث ويضحكن دون تدخل سافر من أحد أو حتى دون نظرات مريبة ، حاولت أن أجري تجربتي الخاصة : صوبت نظري نحو مدخل المقهى لأرى كم من شخص سيلفته منظر الشابات السعوديات المحجبات – لا أقصد النقاب بطبيعة الحال– لاحظت أن لا أحد مهتم بهن ، لم ألاحظ أحداً صوب نظرة حتى ولو كانت عابرة نحوهن .

أُصاب بالحيرة أحياناً حد الجنون ، لماذا تجد ذات المرأة السعودية كامل راحتها وحريتها وأمنها واطمئنانها في بلد غربي كبريطانيا فيما تفتقده في أسواق وطنها ، لماذا تقضي حاجتها وتنجز أعمالها دون مضايقات أو نظرات مريبة ، فيما تلاحقها النظرات في مراكز التسوق في الرياض أو جدة أو حتى مراكز التسوق بقرب الحرم المقدس ، أتساءل دائماً : أين ذهبت أكثر من ثلاثين سنة من الوعظ والتوجيه والتربية الدينية فيما الأوروبي لم يتلق أقل من عشر ذلك الوعظ ، أتساءل بحيرة لماذا تشرب ذات المرأة القهوة في مقاهي "ليستر" وتضحك بكامل إرادتها فيما يتحول كوب القهوة في موطنها إلى جدل الذريعة وطرق سدها !.

في ذات السوق ، بحثت عن مركز لضبط الممارسات المخالفة

"كالمعاكسات" بالمعنى الدارج أو مضايقة الفتيات بالمعنى العام ، لكنني لم أجد سوى مراكز لتقديم الخدمات والمساعدات ، الجميع هنا يحترم الآخر خوفاً من القانون والتزاما بمبادئ وأخلاق لم تضعها لهم "مطويات" دعوية أو "كاسيتات" تحمل قصصاً تدمي القلب عن "موت الفضيلة" ، أقترب من قناعة مفادها أن التربية تبدأ من الصغر عن طريق مبادئ وقيم تزرع عن طريق الوالدين وتمر عبر تجربة ترسخها وليست عن طريق "مطوية" بطباعة فاخرة وقصص وهمية !.

عن مادة دراسية أتحدث

لا يمل مدرسي العزيز في المرحلة الثانوية في السعودية من التكرار أن الغرب يفتقدون في حضارتهم إلى الجانب الأخلاقي والذي نحن بدورنا نملك مفاتيحه السحرية ، كان يكرر كثيراً أن حضارتهم ستسقط قريباً وسنخلفهم بأخلاقنا وسنسود العالم كما يقول .

لم أكن أعي مفهوم الأخلاق كما يجب إلا بعد أن درست مادة في جامعتي في ليستر كانت ضمن تخصص الحاسب الآلي وتقنية المعلومات وكانت تختص بالجانب الأخلاقي في المجلات التقنية والصناعية والوظيفية ، في ذات المادة الدراسية وفي أول يوم ، كتب لنا مدرسها بخط عريض خمسة عناصر أخلاقية أساسية لاتخاذ القرار وتحديد العلاقة مع الآخر كان من ضمنها الفضيلة والحقوق والواجبات.

خرجت من أول محاضرة بشعور غاضب بسبب جنوح هذه المادة للجانب الفلسفي أكثر منه في الجانب التقني الذي أشعر بمتعة حقيقية فيه ، إلا أن قراءتي لمذكرة المادة جعلتني أعيد حساباتي ، رأيت كثرة الدراسات والمؤلفات حول الجانب الأخلاقي في كثير من المجالات ، رأيت الاهتمام الكبير الذي كانت توليه المؤسسات الغربية الرسمية منها

والأهلية من أجل فرض قوانين تحفظ الحقوق وتضمن عدم الخروج عن أخلاقيات العمل والالتزام بالفضيلة .

تذكرت على الفور كلام مدرسي الذي لم تتح له الفرصة لزيارة إحدى الدول الغربية ليرى كيف أن المؤسسات الغربية هي التي وضعت نظام العمل وفق نظام أخلاقي يضمن مصلحة الطرفين ، ليرى أيضاً كيف أن القضية الأخلاقية تغلب القضية المهنية في المحاكم العامة، وكيف أن على أية مؤسسة أو منشأة أن تلتزم بنظام صارم لتوفير جميع أدوات السلامة وفق أعلى المعايير وهو ذات النظام الأخلاقي الذي استوردناه .

نحن الذين استوردنا النظام الأخلاقي الخاص بالملكية الفكرية من الغرب رغم أن الدول الإسلامية تسجل معدلات عالية في خرق حقوق الملكية الفكرية ، في الغرب تكثر قضايا الملكية الفكرية في المحاكم ، وتعطيها ذات الأهمية مقارنة بباقي القضايا ، في الغرب تعقد الاجتماعات والمؤتمرات لصياغة قوانين جديدة لفرض هذا النظام ، وذات الموضوع كان عنوان بحثي في هذه المادة والذي ركزت فيه على حقوق الأفراد المطورين والمبرمجين في شركات تطوير البرمجيات ، كنت وأنا أكتب دراستي التحليلية أتخيل يوماً أننا نستورد هذا النظام الأخلاقي فيما يكتفي المنظرون لدينا بنظريات تحديد سقوط الحضارة الغربية .

أما في مجال الخصوصية والتي كثيراً ما تكون لدينا ارتجالاً وكلاماً عامّاً ، فإنها تشكل في بلاد الغرب حقلاً دراسيّاً مهمّاً يجري فيه مدرس ذات المادة بحثاً عن خصوصية الملفات الطبية للمرضى في المستشفيات

إضافة إلى إشرافه على أبحاث لطلاب سعوديين عن موضوع الخصوصية في استخدام تقنية الإنترنت في البلاد العربية وتحديداً السعودية .

أدركت تماماً أن "مشوار" الحضارة والمدنية طويل جدّاً بالنسبة لنا، لكنه ليس بذات المستحيل إذا ما تخلينا عن الدعاء بسقوط حضارت الآخرين وتفرغنا لبناء الوطن بمفهومه الشمولي دون أن تغرينا فكرة الأمة التي تستحوذ على ثلث الكرة الأرضية دون أن تسهم بشيء -حديثاً- في بناء الحضارة .

في الابتعاث ..
هنالك ما هو أهم من الدراسة

كنت كثيراً ما أفكر قبل أن أحصل على بعثة دراسية في بريطانيا ، هل تعتبر سنتان دراسيتان كفيلتين بأن أكتسب من العلم ما يجعلني أقف بثقة أمام طلابي حاملاً لهم علماً "نافعاً" ، وكنت أعيد قراءة جملة ذلك الكاتب الذي كثيراً ما كان يعول على عودة المبتعثين لتغيير خارطة التعليم في السعودية نحو الأفضل .

لكنني بعد أن أوشكت على الاقتراب من إنهاء دراستي في بريطانيا، وجدت أنه من الخطأ أن نعتقد بأن التغيير يأتي فقط من مقاعد الجامعات الأمريكية أو البريطانية ، ليس صحيحاً دائماً أن تُغير سنتان أو أربع الخارطة التعليمية لمبتعث قضى في بلده أكثر من عقد ونصف العقد في تعليم لا يضمن الحد الأدنى من التأهيل، ورغم أنني أستشعر الثقة في نفسي بمقدار المعرفة والعلم اللذين تلقيتهما في مرحلتي الدراسية في بريطانيا ، إلا أن ذلك كله لم يكن من خلال المحاضرات الدراسية بقدر ما كان من خلال تعلم ذاتي اكتسبت طرقه من مدرسي جامعتي .

في بعثتي الدراسية ، تعلمت كيف أتعلم ، كان مشرفي الدراسي يرفض أن يعطيني معلومة مباشرة ، وإنما كان يزودني بطريقة البحث ،

ثم أبدأ مشوار البحث عن المعلومة ، يخطئ من يظن أن الجامعات الغربية تزود طلابها بالمعرفة داخل القاعات الدراسية ، وهو ما يصطدم به أكثر الطلاب السعوديين الذين يدخلون إلى قاعات الدراسة بمائة ورقة وأكثر من قلمين ظنّاً منهم أن حجم المعرفة الهائل يتطلب منهم هذا الكم من الأوراق في المحاضرة الدراسية .

في الابتعاث هنالك ما هو أهم من الدراسة ، فبالإضافة إلى التعرف على طرق التعليم ، هنالك مهمة التعرف على ثقافات أخرى وطرق ممارستها للحياة ، اكتسبت تجربتي من الشارع البريطاني أكثر مما اكتسبتها من قاعة جامعتي الدراسية ، في مرحلة الابتعاث يتعلم الطالب من الحياة العامة أكثر مما يتعلمه من الحياة الدراسية ، كنت أراقب طريقة مشرفي الدراسي في نصائحه وتوجيهاته لتتحول فيما بعد إلى ممارسة فعلية مع طلابي .

في مرحلة البعثة الدراسية ، يتعلم الطالب كيف يمارس النظام ، ويتعلم كيف يصل لهدفه ، يتعلم كيف يتسوق ويسافر ، ويتعلم كيف يحارو ويجادل ويمنح الفرصة للرأي الآخر ، في مرحلة البعثة يتعلم الطالب كيف يمارس حياته بطريقة حضارية ومدنية ، فليس عيباً أن نستفيد من شعوب سبقتنا بمئات السنين في الحضارة والمدنية .

في جامعتي ، تعلمت من بعض أساتذة لم يعطوني محاضرة واحدة خلال دراستي ، لكنني تعلمت كثيراً من طريقة تعاملهم معنا حين نصادفهم في ممرات الجامعة ، وحين ندخل معهم في حوارات جانبية

يتحولون معنا إلى مستمعين مهتمين حتى لو كان الحوار في صميم تخصصهم ، تعلمت منهم الاهتمام بأي رأي أو ملاحظة حتى لو كانت عبر بريد إلكتروني .

غداً أو بعد غد ، هنالك آلاف المبتعثين سيعودون بما هو أكبر من شهادة علمية ، سيعودون بطرق جديدة لممارسة الحياة ، وسيعودون برؤية أخرى لمستقبل التنمية والتعليم ، سيعودون بمعرفة اكتسبوها بأنفسهم وخلال أبحاثهم التي أجروها في غرفهم الصغيرة أو معامل الجامعة ، لكنها حتماً خارج القاعات الدراسية لكي تكون النتيجة هي قناعة ذاتية ومحصلة أبحاث شخصية، سيعودون جميعهم .، لكن .. ليسوا جميعاً سيحملون التغيير الذي نأمل .

يوم رمضاني في بلد غربي

يبدأ رمضان في بريطانيا بخلاف بين المسلمين ، هل نصوم لأقرب دولة مسلمة أم نصوم وفقاً لدخول رمضان في السعودية ، ولكل أدلته التي يحاول أن يؤولها لتمرير رأيه ، تصلنا بعد ذلك رسالة تخبرنا بالقرار ، وغالباً ما تحثنا على الصوم وفقاً لدخول الشهر في السعودية .

ليس لرمضان أية بهجة في بريطانيا ، أفتقد تماماً فرحة الاستقبال وبهجة القدوم ، أفتقد الخيام الرمضانية والجلسات الليلية التي هي سمة رمضانية في بلدتي في السعودية ، ليس للسحور أو الإفطار أي نكهة رمضانية تفوح مع صوت الأذان .

غير أنني من ناحية إيمانية أشعر بسمو روحي وراحة تعبدية لا تماثلها راحة ، أبدأ صيامي بهدوء دون أن يعرف أحد أنني صائم ودون أن أعلن للملأ تحذيراً بأنني صائم، ذهبت لطبيب الأسنان في يوم رمضاني وأنهيت مهمتي دون أن أخبره بأنني صائم ، كنت قد قررت منذ قدومي إلى بريطانيا ألا أستغل أية عبادة من أجل الحصول على مصلحة دنيوية ، لم أستعطف أحداً أن يراعي ظروفي بكوني مسلماً صائماً كما فعل زميلي حين ذهب لمدرسه من أجل الحصول على تسهيلات في مادته الدراسية مراعاة لظروف الصيام.

في اليوم الرمضاني ، أخرج لمركز المدينة لشراء متطلبات الإفطار

دون توتر أعصاب ودون خصام أو صراخ ، أتعامل مع البائعين في مراكز التسوق بهدوء متبادل ، لم أتلبس إرهاق الصوم أو توتره ، أحاول دائماً أن أحتفظ بسمو العبادة وأن أبعدها عن شوائب الدنيا.

وللسعوديين تحديداً نشاط خيري متميز في رمضان، يتحول مع الإفطار الرمضاني إلى متعة حقيقية تبدأ بالتعاون في إعداد الإفطار وتجهيز المائدة واستقبال الضيوف في المركز الإسلامي الذي يحوي مسجداً خصصته جامعة "نوريج" للمسلمين هناك ، وهو ذات المسجد الذي بدأت فيه أول إفطار رمضاني جماعي مع عدة جنسيات يغلب عليهم الطلاب السعوديون ، تلك ميزة يتميز بها السعوديون في تنظيم التجمعات وتحاول توزيع البهجة في النفوس في كل يوم رمضاني .

وفي شارع بالقرب من مسكني يتميز بالمنتجات الشرقية ، لا تتوقف الحياة في رمضان ولا حتى مع الإفطار ، ذهبت ذات يوم لبقالة عربية لغرض التسوق، وغربت شمس ذلك اليوم وأنا في ذات البقالة ، أخرج صاحب المحل وأخوه علبة تمر صغيرة وكأسين من الماء ، أخبراني بأنني أستطيع الإفطار معهما إذا كنت صائماً ، لم يتوقف العمل ولم يغلقا المحل ولم يستغرق الإفطار سوى دقائق ، تناوبا بعد ذلك على الصلاة وواصلا عملهما بكل سهولة.

أرفض تماماً أن يُجرد اليوم الرمضاني من بهجته وروحانيته ، لكنني أرفض أيضاً أن تتحول عبادة الصوم إلى خطة طوارئ واستنفار تثور معه الأعصاب وتضيع معه روحانية الشهر سواء في السعودية أو حتى في بريطانيا.

الفهرس

مقدمة	٥
لأول مرة .. إلى لندن!	٩
قصتي مع صديقي توم !	١٣
مع العائلة الإنجليزية ..	١٧
بعد سنة كاملة .. هل تغيرتُ فعلاً ؟!	٢١
"قراءة في وجه لندن"	٢٥
صدمة حضارية من نوع آخر	٢٩
بين قرية الساحل .. ومدينة الريف الإنجليزي	٣٣
تفاصيل يومي الإنجليزي	٣٧
باص رقم (٩) .	٤١
جولة في شارع العرب Edgware Road	٤٥
أوقفوا عرض مزايين الإبل .. وصور الخيمة والصحراء	٤٩
التعليم في بريطانيا	٥٣
أحببت الحياة هنا .. لبساطتها	٥٧
تعلمت الكفاح من "جيم" .. لكنني لم أطبقه!	٦١
كامبريدج	٦٥

في بريطانيا العلم قبل القول والعمل ٦٩
رحلة إلى قلعة وريك Warwick ٧٣
النقد والمراجعة في المجتمعات الغربية! ٧٧
التعلم ،التطوع وتطوير الذات .. ٨١
حديث في المطارات ... ٨٥
حوار وصراخ .. صورة لنقاشات مبتعثين سعوديين ٨٩
حتى في بريطانيا .. يلاحقنا الوعظ ٩٣
سعوديات في بريطانيا .. يشربن القهوة بأمان ! ٩٧
عن مادة دراسية أتحدث ١٠١
في الابتعاث .. هنالك ما هو أهم من الدراسة . ١٠٥
يوم رمضاني في بلد غربي ١٠٩